# مع عاهل الجزيرة العربية

عباس محمود العقاد

صاحب الجلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود

صاحب الجلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود

صاحب الجلالة

الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود المعظم

# الإهداء

إلى روح العظيم

مؤسس المملكة العربية السعودية

وباعث النهضة في جزيرة العرب

جلالة الملك عبد العزيز آل سعود

أرفع هذه الصفحات التي سجَّلها قلم المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد، ناثرًا فيها ذكرياته وخواطره بعد زيارته للعاهل الراحل؛ صفحات يجتمع فيها نمطان من سمو النفس والمقدرة على البناء.

عامر العقاد

# ما قبل المقدمة

ضاع ملكه وملك آبائه وشرد من بلاده .. وكان يومها في ريعان شبابه .. لم تهز الهزيمة إيمانه، ولم يؤثر الحرمان في تقاليده؛ بأن يكرم ضيفه بكل ما يستطيع .. حتى قيل: إنه رهن عباءته وهو في الكويت؛ ليقدِّم طعامًا يليق بضيف زاره فجأة.

وقد نصح أهل الخبرة والتجربة هذا الشاب أن يقبل الهزيمة ولا يعاند في الأمر الواقع .. قالوا له: إنَّ الشجاعة ليست أن تحاول المستحيل؛ وإنما هي أن تحاول الممكن .. ولكن الشاب رفضَ النصيحةَ وسار على رأس قوة من نحو أربعين رجلًا مؤمنًا؛ ليقاتل جيش إمارة ورجال قبائل أكثر عددًا وأقوى سلاحًا.. وأصيب إصابات قاتلة في معارك عدة قادها بنفسه .. ولكن الرصاص لم يصب إيمانه بحقه وحق آبائه الضائع؛ بل أضاف إليه إضافات كبيرة جمعت أكثر أرجاء الجزيرة العربية في إطار من الأمن والاستقرار والرخاء والوحدة التي فقدتها منذ انتهاء عهد الخلفاء الراشدين الذين كان لعبد العزيز فيهم أسوة حسنة وقدرة سلفية طيبة تمسك بها، واسترشد وبنى حُكمه على أساساها.

وقد ذَاقَ هذا الرجل العظيم مرارة الجوع والحرمان؛ ومع ذلك لم يتسلل الحقد إلى قبله. ثم رأى الذهب والفضة تحت قدميه فلم يغيِّره بريقهما، وذاقَ الهزيمة فلم تضعف عزيمته، ثم ذاق النصر فلم يسكر به..

كان عنيدًا مع الأقوياء متواضعًا مع الضعفاء؛ ولكنه مع عناده كان يسمع الرأي الآخر، فإذا اقتنع به رجع إليه؛ لأنه اتخذ من الحق والشرعية إمامًا وحكمًا. وكان

يؤمن أنَّ الأقوياء هم الذين يرجعون عن أخطائهم، والضعفاء هم الذين يتمسكون بها.

كان عبد العزيز عدة رجال في رجلٍ واحد .. ولقد صدرت عشرات الكتب بمختلف اللغات تتحدث عن جوانب شخصيته، ولا شك أن المكتبات ستستقبل عدة كتب أخرى تتحدث عن تلك الشخصية النادرة... فإنَّ التاريخ الكامل لها لم يكتب بعد...

وهذا الكتاب يقدِّم لنا بعض الصور التي التقطها كاتب العبقريات الإسلامية عباس محمود العقاد لعاهل الجزيرة العربية ومؤسس الدولة السعودية وباعث نهضتها الجديدة ومفجر طاقاتها البشرية والمادية، فقد عرف العقاد عبد العزيز فلمس جوانب من عبقريته الفطرية التي أجمع مؤرخ شخصيات هذا العصر على أنها من أعظم العبقريات السياسية والإصلاحية التي ظهرت فيه.

وقد أثرت شخصية الملك عبد العزيز في العقاد؛ فصوَّر جوانب منها تصويرًا صادقًا في هذا الكتاب.

عبد الرحمن عزام

# مقدمة

## أمة مؤرخة

يصف الاجتماعيون الأوربيون أمة العرب بأنها أمة تاريخية أو -على الأصح- أمة مؤرخة.

ولا يعنون بذلك أنها أُمَّة عريقة في التاريخ، فهذه حقيقة شائعة لا تحتاج إلى وصف خاص من علماء الاجتماع أو علماء الأجناس، وإنما يعنون أنها أمة مطبوعة على تسجيل الحوادث وتوريث الأبناء والروايات من السلف إلى الخلف، بغير انقطاع في سلسلة الإسناد، وإنك إذا صادفت منها رجلًا في عرض الطريق أمكنك أن تعرف منه تاريخ قبيلته وقومه إلى زمنٍ بعيدٍ، أو أن تعرف منه ما لست تعرفه من كل فرد في كل أمة، ولو كان لها تاريخ مدون مذكور.

وهذه مزية «مخصوصة» وليست بالمزية الشائعة كما يبدو لأول وهلة. فإن من الأمم العريقة أممًا تسأل الواحد من أبنائها عن أقرب التواريخ إليه، فإذا هو لا يذكرها بغير المراجعة والسؤال، وهذه هي الأمم التي توصف بأنها «حاضرية» مبتوتة؛ أي تعيش فيما حضرها من الزمان، ولا تعني كثيرًا بما بينها وبين الماضي من الأواصر في حياة الفرد أو حياة الجماعة.

تتجلى هذه الحقيقة في طريفة من الطرائف الممتعة التي رواها لنا الشاعر الأديب صاحب «رحلة الربيع» وهو يبحث عن منزلٍ من المنازل التي ذكرها «امرؤ القيس» في معلقته الخالدة حيث يقول:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

وقد دعاه إلى هذا البحث أنه اقترب من محلة تعرف «مرات» وفي جوارها «التوضحية» وعندها غدير مشهور، وقيل له فيما قيل، إنما هي المقرات التي ذكرها حامل لواء الشعراء في الجاهلية. ولم يستبعد ذلك لأنه كما قال: «ليس بكثير على أربعة عشر قرنًا أن تلحس قافًا واحدة، فتحرف الكلمة من مقرات إلى مرات، وقد لحست ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات».

إلا أنَّه آثر السؤال مع ذلك وقص علينا تساؤله ونتائج تحريه فقال: «... التقينا بأول رجل وقع نظرنا عليه، فقلت: لا شكَّ أن هذا من أهل القرية، فبدأته السلام، ثم قلت له: يا رجل! أهذه قرية امرئ القيس الشاعر المعروف؟ فتدفق كالبحر الزاخر يدلي إلي بمعلومات واسعة حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع الأدبية والتاريخية المتصلة بهذه القرية.

وخلاصة ما ذكره أن هذه بلدة رجل آخر سمي بهذا الاسم غير امرئ القيس المشهور، وأن الأول تميمي والآخر كندي، وأن امرأ القيس التميمي رجل دميم الخصال هجاه الشعراءُ وهجوا البلدة لأجله، ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين...».

قلت وأنا أقرأ هذه القصة: لا جرم يوصف العرب بأنهم أمة مؤرخة، أو أمة تتصل فيها علاقة السند بين ماضيها وحاضره؛ بل لا جرم تكون الرحلة كلها دليلًا على هذه الصفة الاجتماعية؛ فإنه لولا «الروح العربي» قد أحاط بالمؤلف ونفخ من وحيه في قلمه لما ظهر هذا «التاريخ المصري» في حيز الكتابة، ثم حيز الطباعة. فما تخاله إلا صدى صادقًا يردد ما تجاوبت به البيد من أنباء تلك الرحلة في أرجاء الجزيرة العربية؛ لأن الإله القدير الذي جعل الرمال سافية لا تبقي على أثر، قد جعل

سكان الرمال سجلًّا واعيًا لجميع الآثار، ولا سيما هذه الآثار الكبار، وهي تروي تاريخ الضيافة الملكية من الحجاز إلى نجد، ومن نجد إلى الحجاز.

على أنَّ الإله القدير قد شاء كذلك أن يكون العالم الإسلامي كله سجلًّا واعيًا لأنباء هذين القطرين الخالدين، وأن يكون سكانهما بالأرواح والأذهان أضعاف من سكنوهما بالعيان والجثمان. فمَن من قراء العربية لا يحسب بين ساكني الحجاز في عالم الروح والضمير؟ ومن منهم لا يحسب بين ساكني نجد في عالم العاطفة والخيال؟ هنالك سطعت أنوار النبوة المحمدية، وهنا تفجرت ينابيع البلاغة العربية، فكل من عرف وحي السماء في آيات القرآن، ووحي الطبيعة في ألسنة الشعراء فقد عاش في نجد والحجاز، وشغله الحديث عنهما زمنًا، ولا يزال يشغله إلى الآن.

ولهذا نعتقد أن قراء العربية يطلعون على أنباء هذه الرحلة الحجازية النجدية، وينطلقون معها في أودية الخيال ليشهدوا قافلة الأمس وقافلة اليوم، ويعجبوا مع الصحراء لركب السيارة والبوق بعد ركب الجمل والحداء. ويطمئنوا إلى تطور الزمن حين يستمعون إلى الملك العصامي العظامي وهو يقول: «إنَّ بعض المسلمين مع الأسف لم يجدوا طريقة للتقدم في نظرهم إلا بتقليد الأوربيين؛ ولكنهم لم يقلدوهم فيما ينفع بما كان سبب قوتهم ومنعتهم، بل قلدوهم فيما لا يسوغه دينهم من الأمور الأخرى. فقد مضى عشرات السنين على الذين يدعون الناس في السر والعلن، بالقول والعمل؛ لتقليد الأوربيين. ولكن من منهم عمل إلى اليوم إبرة، أو صنع طيارة، أو اخترع بندقية أو مدفعًا؟ لقد قلدوهم فيما يخالف أمور دينهم، واكتفوا من تقليد الأوربيين بذلك...».

فالحقُّ إذن أن الناس ليستمعون من هذه الكلمات آية أخرى من آيات «العروبة المؤرخة» أو العروبة التي تتصل فيها الأواصر بين حاضرها وماضيها، وتتغير مع

الزمن؛ ولكنها لا تنقطع عن حقائقها ومعانيها. فالخير كل الخير مرهون بهذه الحكمة العملية الواضحة التي تحفظ لنا خير ما عندها، وتعطينا من غيرنا خير ما عندهم: قوام بين القديم والحديث، فلا يصدنا القديم عن محاسن الحديث، ولا يصدنا الحديث عن محاسن القديم.

وإننا إذ نقدم هذه الدراسة عن رحلة العقاد رحمه الله إلى المملكة العربية السعودية، وما سجله بقلمه العملاق عن انطباعات في نفسه بعد مقابلة العاهل الراحل جلالة الملك عبد العزيز بن سعود في عام (١٩٤٦م)، وما رآه وسمعه من صراحته ودوام سهره على شئون شعبه وضيوفه، كذلك ما لمسه من السادة الأمرء أبنائه النجباء، وما دار بينه وبينهم من أحاديث في التاريخ والأدب خلال الإقامة، أو خلال العودة بصحبة والدهم العظيم على متن «المحروسة» يوم زيارته لمصر في ذلك العام -نرجو أن تلقى من عناية الدارسين ما لقيته من أبناء مكة وغيرها من مدن المملكة في تاريخها القديم وتاريخها الحديث، فهي حلقة موصولة من حياة «أمة مؤرخة» نرجو أن تظل أبدًا في صدر التاريخ بما تبرزه له من عظائم الآثار إلى ما شاء الله.

**«إنَّ ابن سعود من أولئك الزعماء الذين يراهم المتفرسون المتوسمون؛ فلا يحارون في أسباب زعامتهم وعظمتهم، ولا يجدون أنفسهم مضطرين أن يسألوا: لماذا كان هؤلاء زعماء؟ لأنَّ الإيمان باستحقاق هؤلاء لمنزلة الزعامة في أقوامهم أسهل كثيرًا من الشك في ذلك الاستحقاق».**

**العقاد**

# مقتطفات مختارة
## من أحاديث وأقوال
## الراحل الكبير جلالة الملك عبد العزيز آل سعود

* إنني واللهِ لا أحب إلا مَن أحبَّ الله حبًّا خالصًا من الشرك والبدع. وأنا واللهِ لا أعمل إلا لأجل ذلك، ولا يهمني أن أكون ملكًا أو فقيرًا.

واللهِ ثم واللهِ إني لأفضل أن أكون على رأس جبل؛ آكل من عشب الأرض وأعبد الله وحده، من أن أكون ملكًا على سائر الدنيا وما فيها.

* إنني أفخر لكل من يخدم الإسلام ويخدم المسلمين وأعتز بهم؛ بل أخدمهم وأساعدهم وأؤيدهم. إنني أمقتُ كل من يحاول الدسَّ على الدين وعلى المسلمين؛ ولو كان من أسمى الناس مقامًا وأعلاهم مكانة.

* إنني أدعو المسلمين جميعًا إلى عبادة الله وحده، والرجوع للعمل بما كان عليه السلف الصالح؛ لأنه لا نجاة للمسلمين إلا بهذا، وأسأل اللهَ تعالى أن يوفقنا جميعًا إلى ما يحبه ويرضاه.

* إنَّ المسلمين لا يرقون ولا ينهضون بالبهرجة والزخارف؛ إنَّ سبيل رقي المسلمين هو التوحيد الخالص، والخروج من أسر البدع والضلالات، والاعتصام بما جاء في كتاب الله على لسان رسوله الكريم.

* إنَّ الإسلام هو الوسيلة لسعادة الدنيا والآخرة: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة}، فلم يمنع الإسلام الناس من السعي في الأرض والعمل على كل ما يرفع شأن الملَّة.

* إنَّ تقدم المسلمين ونهوضهم هو من الأمور التي ما برحنا ندعو إليها إن شاء الله، ولا نهوض للمسلمين بغير الرجوع إلى دينهم والتمسك بعقيدتهم الصحيحة، والاعتصام بحبل الله، والطريق إلى ذلك واضح معبد لمن أراد سلوكه؛ وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالتوحيد الخالي من الشرك والبدع، والعمل بما يأمرنا به الدين؛ لأنه لا فائدة من قولٍ بلا عمل.

* واللهِ ثم واللهِ، إنَّ العجوز القابعة في وكرها والتي لا تملك من الثياب إلا الأطمار البالية، وهي تعبد الله وحده عبادة خالصة، هي أحب إلى قلبي من أي إنسان بلغ من العظمة والشأن ما بلغ، إذا كان لا يؤمن بالله إيمانًا صادقًا خالصًا، ولا يعمل بما جاء في كتاب الله.

* أنا لستُ من رجال القول الذين يرمون اللفظ بغير حسابٍ، فأنا رجل عملي إذا قلتُ فعلتُ، وعيبٌ عليَّ في ديني وشرفي أن أقول قولًا لا أتبعه بالعمل؛ لأنَّ هذا شيء ما اعتدتُ عليه، ولا أحب أن أتعوده أبدًا. فإذا كان الذي بيني وبين الله عامرًا، فعسى الذي بيني وبين العالمين خراب.

* يجب على كل إنسان أن يقول ما في ضميره بصراحة تامة، وأن لا يخشى في الحقِّ لومة لائم. ويجب أن يصرِّح كل فرد بما يعتقده فيه المنفعة؛ لأن مجال البحث والتوفيق والتمحيص يوصل إلى خير النتائج وأحسنها، فعلى الإنسان الاجتهاد ومن الله التوفيق.

* الناس في رأيي ثلاثة؛ واحد منهم من أهل الحق، وهذا أساويه بنفسي وأفديه بها، وثانيهم من أهل الخير والشر، وهذا أدعو له بأن الله يعلي خيره على شره، ويكفينا شره، والثالث من أهل الشر والعياذ بالله، وهذا أسأل الله له الهداية وأن يجنبه وغيره شر نفسه ويرشده إلى الصواب.

* اثنتان أحمد الله على واحدة منهما وأشكره على الأخرى؛ أحمد الله على أني أكره أهل الضلال وعلى كراهة أهل الضلال لي، وأشكره على محبة أهل الخير لي ومحبتي لهم.

* قوام الخلق في هذه الدنيا الصدق، وكل حياة لا ترتكز على الصدق ليس لها قيمة قط؛ لأن الصدق يثيب الإنسان في حالتي الدنيا والآخرة.

# ملامح حياة

«لا جدال في أنَّ الآية التي تتجلى فيها حياة العظماء هي امتداد الأثر بعد الحياة، فلا تنتهي آثار العظيم بانتهاء السنين التي يقضيها في هذا العالم، ولا تقف هذه الآثار عند حدود البلاد التي نشأ فيها، فهي على اختلاف الصفات والأعمال قوة تتخطى حدود الزمان والمكان، ولا تزال علمًا من أعلام الهداية التي يستنير بها بنو الإنسان من قومه وغير قومه، وفي زمنه وغير زمنه، أعمارًا طويلًا بعيدة الآماد هي التي نسميها الخلود».

ذلك مقياس العقاد في تقديره لعظماء التاريخ «فهو يرى أن جوانب العظمة الفردية في بني الإنسان خليقة بالتجلة والتقدير. وإننا مطالبون بأن نرفع صورهم إلى مكان التجلة؛ لأننا في زمان يوجب هذا. إذ إن الأسباب التي تغض من وقار العظمة لم تزل تتكاثر عفوًا في بعض الأحيان وقصدًا في أحيان أخرى، حتى أصبحت العظمة في حاجة إلى ما يسمى -كما يقول العقاد- «برد الاعتبار» في لغة القانون؛ لأن الإنسانية لا تعرف حقًّا من الحقوق إن لم تعرف حق عظمائها، وأن الإنسانية كلها ليست بشيءٍ إن كانت العظمة في قديمها أو حديثها ليست بشيء.

وقد عاب البعض هذا المذهب في كتابة العقاد لسير العظماء؛ بأنه أشبه بقصائد ثناء؛ أي يحفل بجوانب عظمتهم ولا يحفل بما فيهم من العيوب، وهو انتقاد يكون له وجه لو كان ثناء العقاد على العظماء لخصال ليست فيهم، أو أنه يثني عليهم دون أن يبين دواعي الثناء على أخلاقهم وأفعالهم.

وهكذا فعل في عبقرياته الإسلامية الخالدة، وفي دراساته وسيره الأخرى التي قدر لأصحابها أن يتناولهم قلم العقاد بالإنصاف والتقدير.

يقال: إن لكل شيء آيته التي لا تتجلى إلا فيه، وآية العظمة في موازين الإنصاف أن يعمل الإنسان عملًا لم يقدر عليه الملايين من قبله. ولا يفهم من هذا القول أنَّ العظيم مطالب بأن يعمل كل شيءٍ، أو أن يعمل كل ما أراد؛ لأنه لو قيست عظمة الأبطال الأفذاذ بمقياس كهذا المقياس لما بقي في التاريخ عظيم واحد. فما من بطل يعفي الناس من العمل بعده، وما من بطل حقق أمنيته كلها في حياته؛ وإنما البطولة أن ينهض فرد بأعباء الألوف، وأن ينسى نفسه ليذكر الناسين وينبه الغافلين.

وعلى أساس هذه المقاييس كتب العقاد دراساته المختلفة، وبهذه المقاييس في نظره يرتقي العظيم إلى الذروة العليا من الإنسانية الرحبة؛ فيستحق حقه من أمته وغير أمته، وقد يكون حقه من أمته متصلًا بالمنفعة والأثرة، أمَّا حقه من غيرها فهو حق الأمانة لنفسه ولأبناء نوعه، ما دامت الثقة بالطبيعة الإنسانية شيئًا يعنيه. وهذه الثقة في رأي العقاد هي أنفس ما تقتنيه من تراجم العظماء. ويرى العقاد أيضًا أن تراجم العظماء عبث إن كانت خلاصتها أن العظماء ليسوا بعظماء، أو إن كتبت تراجمهم لفضح عيوبهم ونقائصهم.

وشخصية صاحب هذه السيرة -ونعني به جلالة العاهل الراحل عبد العزيز آل سعود- شخصية بينة المعالم واضحة لا تختلط بغيرها، فهي تظهر دائمًا بسمات خاصة فيها. ولا يختلف اثنان في أنها من تلك الشخصيات التي يعرف الناس فيها ذلك النمط الصانع للتاريخ، أولئك الذين تقف شخصياتهم لا تطغى عليها البيئة فتدغمها في غيرها، وإنما تحتفظ بكيانها المستقل لأنَّ لها خصائص وعلامات تنجيها من الفناء في الشخصيات الأخرى.

كان علمًا مفردًا في صفاته كما كان في بنيانه الوثيق المكين علمًا مفردًا كذلك. فهو طويل القامة، ضخم الجسم سامق البنيان مكينه، مرفوع الذرى. وقد ذكر أحد الذين أرخوا لسيرة جلالته أن طوله كان يبلغ ست أقدام وأربع بوصات. فهو إذن من أولئك العرب الممتازين بقوة التركيب ومتانة البناء وطول القامة وضخامة الجسم. له رأس كبير يناسب هذا البناء الشامخ، وجبين متسع ساطع، وحاجبان أسودان يفصل بينهما بلج واضح، تحتهما عينان صافيتان متألقتان دعجاوان تشعان بالنور في حالة رضاه، وتتقدان في حالة غضبه وعدم رضاه، أنف أشم، وشارب يغطي وفضته، مفتر الثغر، متهلل الوجه حسنه، تزينه لحية خفيفة، عريض المنكبين، شثل الكفين، جليل المشاش، يميل إلى البساطة في كل حياته، كثير الصمت. أمَّا إذا تكلم أطنب ودلَّ على علمٍ واسعٍ بما يقول أو يتحدث فيه.

روى العقاد عن جلالته أنه حينما ناقشه في مسألة جامعة الدول العربية عام (١٩٤٦م) أنه قال له عنها: «إنها منار لنا -أي للعرب- لأنها تصدر في أعمالها عن بحوث مشتركة بين ذوي الرأي والبصيرة يرون في جملتهم ما لا يراه أهل كل بلد على انفراد، وأنها دريئة للدول العربية؛ لأن حجة الدولة التي تحتج بقرار الجامعة قائمة، وعذرها فيما ترضاه أو تأباه مقبول».

وذكر صاحب كتاب «ملوك العرب» عنه أنه: «كثيرًا ما يقف في حديث مهم لينظر في أمر ظاهره طفيف، ثم يدخل عليه أحد الخدم أو الكتاب فيقطع عليه الحديث ثانية، فينظر في الأمر الثاني، ثم يعود -وهذا ما كان يدهشني جدًّا- إلى الكلمة الأخيرة من حديثه الأول دون أن يسأل كما هي العادة في مثل هذه الحال عند أكثر الناس: ماذا كنت أقول؟ لا. ما سمعته مرة، وكانت أحاديثنا معرضة دائمًا للتقطيع، يسأل هذا

السؤال. فهو شديد الحافظة ومتيقظ دائمًا، عليه الصغيرة والكبيرة يقينًا. وله اليد المصلحة في الاثنتين»[١].

ووصفه الأستاذ «أحمد عبد الغفور عطار» في كتابه عنه فقال: «إذا وقف المرء تجاهه شعر بضآلته تجاه جسمه الصلب الوثيق الفارع، وإذا نظر إلى وجهه زادته هيبة غير راعبة عن التحديق فيه، فيختلس النظر إليه يتملى محياه الباسم وطلعته القوية البارزة، وتفيض مهابته على مجلسه، فلا يطيق أحد الكلام إلا إذا مد له حبل تواضعه وسماحته؛ بل إنَّ بعض من يحضرون للسلام عليه يفاجأون بمهابته، فما يستطيعون النطق بحرف فيبسم لهم ويهدئ منهم ويستدرجهم إلى البوح بما في أنفسهم، ويدنو إليهم ويسألهم عن حالهم حتى يتكلموا ويشعروا كأنهم بمحضر صديق أو أب رحيم ويفارقونه، وما يزال في أنفسهم رنين صوته العذب وذكريات عن تواضعه، وسماحة نفسه، ورجاحة عقله، وصفاء قلبه، وحسن نيته وطيب سريرته»[٢].

يقال: «إنَّ ألسنة الخلق أقلام الحق».

كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت وهي صدق في كثير من الأحيان، وهي صدق في جميع الأحيان حينما يرسلها متحدث عن تواضع جلالة الملك الراحل، عاهل الجزيرة العربية عبد العزيز بن سعود. فإن أول ما يلمسه من يقابله أو يتحدث إليه تواضعه الكبير. فهي خليقة فيه لم تفقده إياها السلطة ولا بعد الصيت ولا شهادة الأجانب بعبقريته وعظمته، ولم يخرجه عن التواضع والبساطة هذا الملك الذي يمد أحد ذراعيه على البحر الأحمر والأخرى على الخليج العربي فيضم ما بينهما، ولم يخرجه

(١) «ملوك العرب» لأمين الريحاني، الطبعة الثانية ببيروت سنة ١٩٢٩م، الجزء الثاني، ص٥٢.

(٢) «صقر الجزيرة» لأحمد عبد الغفور عطار، الجزء الثاني، ص٦٨٦.

عنهما الغنى والوفرة والقوة؛ ذلك لأنَّ ولي الأمر المسلم الصحيح لا تغره الدنيا بزخرفها، ولا تغره القوة وسلطانها.

والرحمة خليقة أصيلة مكينه فيه أيضًا. وليست عرامته وصرامته في ميادين القتال والصراع بنافية تلك الخليقة؛ لأن الضرورة هنا تفرض عليه الشدة والصرامة، فإذا ما زالت الحرب زالت الصرامة؛ لأنه بزوال العارض يزول ما بني عليه. فقد عرف عنه أنه لم ينس في مواطن الحرب معاني الرحمة ومشاهدها؛ فقد كان يأسى أشد الأسى على القتلى من خصومه، ويقف واجمًا تصطرع في نفسه الخوالج والآلام؛ لأنه يرى «أناسًا» استلبت أرواحهم الحرب ومزَّقت أجسادهم السيوف البواتر.

روى أحد مؤرخيه أن جلالته وقف أمام قتلى إحدى مواقعه، وكان عددهم كبيرًا من جنود خصمه «الحسين»، فما أطاق منظرهم وقد جيفت أجسادهم وعبثت بها الرياح. فأطرق محزونًا يثب الدمع إلى عينيه بالرغم من جلده.

ورُب قائل يقول: كيف يكون هذا الموقف كان خليقًا بسرور جلالته؛ لأنه يرى أعداءه قتلى مطروحين، هذا إلى جانب لذة النصر المؤزر الذي بذل له الروح، وغامر من أجله بأعز ما لديه وهي الحياة نفسها. وصحيح في الجملة والتفصيل أنه موقف خليق بأن يبعث السرور إلى نفس الرحيم؛ لأنه هزم من يريدون قتله وسبقهم بسلب أرواحهم؛ ولكنه ليس كذلك عند ابن سعود. فقد قال والدمع ينحدر على وجنتيه: «ما كان أحرى بأخي «الحسين» ألا يلقي بهؤلاء البؤساء إلى هذا المصير الأليم ويكون سبب هلاكهم، لا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم».

فهذه الكلمة وحدها تكفي في معرض الدلالة على خليقة الرحمة فيه، فهو يحزن على أعدائه لأنهم من بني «الإنسان» ويتألم أشد التألم ممن قذفهم إلى المجزرة ليلقوا حتفهم على يديه.

كما كان يدل على خليقة الرحمة فيه أنه كان لا يحب أن يبدأ أحدًا بحرب، أو يعتدي على كائن من كان ولو ناله بما يكره؛ لأنه يعرف عاقبة الالتجاء إلى السيف فهو -ما دام كذلك- لن يحمل السيف وهو قادر على المسالمة والصبر. أمَّا إذا كان القتال معه ضربة لازب فلا محيص عنها ولا مفر منه؛ لأنه مضطر إليه، ولا حرج على المضطر في شريعة من الشرائع ولا قانون من القوانين.

يقول الأستاذ «أحمد عبد الغفور عطار» عن هذه الخليقة في جلالته: «ليس العرام والصرامة بخلائق أصيلة قوية الأساس في نفس الصقر كخليقة الرحمة، وإن كان من لوازم القائد المسئول لإخماد ثورة أو مقاتلة عنيد أو ضمان طاعة»[1].

وليس معنى هذا كله أن خلائق جلالته الأصيلة كانت وقفًا على الرحمة، فهناك الدهاء وقوة النفس والحلم والعفو عند المقدرة والصراحة والمنطق السليم الذي لا التواء في ولا مغالطة، والزهد والتقوى والصلاح إلى غيرها من الصفات التي لا تجتمع في الزعماء إلا نادرًا، وهي صفات يجب أن تكون في القائد العظيم المسئول.

فالدهاء من أداوته اللازمة التي لا غنى لقائد عنها. والدهاء -في منطق النبيل- لا يستدعي المكر والخديعة والغدر؛ لأنه ليس دهاء الضعيف المترصد؛ ولكنه دهاء القوي والغلاب. فهو عنده حدق وفطنة ومهارة للوصول إلى مرامه دون أن يساء إلى أحد إلا بقدر ما لا يتم العمل المنشود إلا به. وهو عند الضعيف مكر وغدر وخديعة

(١) «صقر الجزيرة» لأحمد عبد الغفور عطار، الجزء الثاني، ص٦٨٨.

واقتناص للغرض واستدراج مسف؛ لينتقم ويدرك طلابه عن هذا السبيل المعوج الممقوت الذي لا سبيل سواه يسلكه لضعفه، فالدهاء عند النبيل الغلاب فضيلة، ولكن هذه الفضيلة تستحيل عند الضعيف رذيلة.

كما كان جلالته قوي النفس، وهي أيضًا من صفاته الخليقة البارزة؛ لأن النفس بغير قوة لا يمكن أن تضمن الغلبة والفوز، ومتى كانت قوية استطاعت أن تمد كل من يتصل بها بالحيوية والنماء. وقد كان زاهدًا في ملاذ الدنيا؛ لأنه قوي الإرادة صبور على الخشونة اكتفاء بالنعيم الموعد وأسوة بالرسول الكريم الذي راودته الجبال بأن تكون له ذهبًا فأبى. ولولا قوة النفس لدخلت زخارف الحياة ومحبة ملذاتها إلى نفسه من الباب الذي لا يفر منه الزهد والتقوى والصلاح.

وربما يكون الإنسان قوي النفس والقلب؛ ولكنه لا يكون قوي المنطق والأداء، وقد يكون العكس، ولكن عاهل الجزيرة رضوان الله عليه جمع القوى كلها في نفسه؛ فهو جهير الصوت، خطيب يسعه أن يؤثر في جنوده ورجاله، قوي المنطق؛ فتملك الأسماع حججه.

أمَّا كرمه وجوده فقد كان مضرب الأمثال؛ فقد روى الذين أرخوا لسيرة جلالته أنه كان جوادًا سمحًا، لَيِّن العريكة، سريع النجدة والنخوة، فقد كان يرى في المال أنه حطام الدنيا، والحطام فانٍ، والروح باق خالد.

وقد نصحه أصدقاؤه بالكفِّ عن البذل والسخاء والكرم، فقال لهم: «ما أغنت قارون خزائنه» والمال -كالعلم- يربو بالإنفاق، وأي إرباء خير من أن يمحو به عن المحتاجين آلامهم ويأسو كلومهم.

روي عنه أنه ذات يوم حينما كان يخرج للنزهة أعطى فقيرًا صرة، فأخبره السائق أنها صرة الجنيهات لا الريالات الفضية، وبها ثلاثمائة جنيه ذهبي، فنادى السائل، فأقبل إليه كاسفًا ظنًّا منه أنه سيستردها، فقال له: «أردت أن أهبك الريالات، وما نويت إلا هذا! ولكن الله هو الذي وهبك هذا الذهب حيث أخطأت فأعطيتك صرة الجنيهات. إنها ليست هبتي؛ ولكنها هبة الله، فخذها واشكر الله وحده عزَّ وجلَّ، واشتر بها نخيلًا واعمل ولا تكسل!».

ويعقب الأستاذ «أحمد عبد الغفور عطار» على هذه القصة فيقول: «إن ذلك السائل لا يزال موجودًا؛ ولكنه أصبح بفضل الله غنيًّا صاحب نخل وزرع».

كما روي عن جلالته أنه عندما نشبت الحرب وقلَّت واردات البلاد من الأزواد والأرزاق، وخاف على الرعية جشع التجار، فرتب لكل فرد منهم -ما عدا الموظف والغني- طعامه، وذلك من حسابه الخاص، كما افتتح مراكز تموين حكومية ملأها بمطالب الناس من طعام وشراب، ولم يمنع التجار الجشعين من زيادة الأثمان؛ بل تركهم أحرارًا يعملون ما يشاءون؛ فمن باع بالثمن الذي يبيع به مركز التموين باع، وإلا وقفت حركة البيع والشراء عنده؛ لأن الناس لن يتركوا الرخص إلى الغالي، فالتجار مضطرون إلى البيع أو إلى إغلاق متاجرهم إن أرادوا، ويباح لكل امرئ أن يشتري ما يريد بدون تحديد للكمية، حتى أصبح الخزن عبثًا لا فائدة منه.

إن أقل ما يقال في عمل جلالته هذا أنه غير معهود في التاريخ بالنسبة لتلك البلاد؛ ولكن الشعب عهده في زمنه. وليس في هذا غرابة في سيرة جلالته التي تلتقي فيها جملة من الصفات الكريمة. وهي صفات شَتَّى لكل منها اسم خاص ومدلول خاص؛ ولكن الملتقى واحد بعد هذا المطاف وقبله، فهي تتصل ببعضها لسببٍ أو بأسبابٍ.

إنَّ آية العظمة فيه أن صفة من هذه الصفات لم تطغ على غيرها، فما كرمه وعطاؤه وسخاؤه بمغط حلمه وعفوه؛ وذلك لأن لكل صفة «كونًا» خاصًّا. فالكرم والعطاء والسخاء تلتقي بالحلم والعفو أعظم التقاء؛ لأنَّ من الجود أن تقضي حاجة المحتاج، وتلبي نداء القاصد، وما العفة إلا هبة روح وقد يكون غير روح، وطلقاؤه غير واحد، كما تدل على ذلك مواقفه المتعددة في هذا الميدان.

أمَّا عدله فقد كان مزيجًا من الرحمة والقسوة، أو أنه عدل ذو طرفين؛ أحدهما الرحمة وثانيهما القسوة. فمن لم يقس بالجناة بالزجر والتأديب والسلامة وضبط الأمور لا يعرف الرحمة بالأبرياء والمساكين. فإن لم يعمل على إزالة الشر أو الحد من صولته استشرى وتفاقم، ولا يمكن صرع الشر إلا بالقوة، وقديمًا قيل: إنَّ القوة سبيل العدل والرحمة.

يروى عن جلالته أنه تفقد بعد صلاة الجمعة ابنًا له فلم يجده في المسجد ولقيه في البيت، وسأله عن سبب تخلفه عن الصلاة، فأجاب: بأنه تأخر عن غير قصد فجأة ولم يدركها فرجع! فأمر بسجنه وسجن خدمه جزاءً لئلا يتخلفوا عن الجمعة ويبادروا إليها مرة أخرى.

وهذا تأديب قد يزهد فيه الوالد؛ ولكن ابن سعود خرج عن الأبوة هنا إلى الحكومة، فالأب يعطف على ابنه ويرحمه ويشفق به، والحكومة لا ابن لها تعطف عليه، فالمذنب يجازى، ولا فرق عند الحق بين الصغير والكبير. وابن سعود منفذ أمر الشرع، فهل يطيق أن يسجن كل مهمل لصلاة الجمعة ويفلت ابنه لعذرٍ مقبول؟ كلا. وكذلك فعل بابنه؛ فقد أمر بسجنه في السجن العام الذي يزج فيه كل مذنب، ولبث فيه ثلاثة أيام، وهي مدة أطول من المدة التي يستحقها تارك الجمعة بدون قصد. وليس هذا بالحادث الجلل من حوادث العدل؛ ولكنه دلالة عليه في سيرة هذا الرجل العظيم.

إنَّ سطور التاريخ الحديث تتحدث عن آل سعود قبل مائتي عام فنعرف منها أنهم ناصروا الدعوة الجديدة إلى التوحيد، أيام عاد محمد بن عبد الوهاب إلى نجد، ونظر فإذا الناس من حوله لا زاجر لهم من دين أو نظام: أتباع أهواء، كلٌّ «حرب» لكل. فقال: «إن لم يكن الوازع لهم من سلطانهم، فليس الوازع من إيمانهم. إنهم في خصام فليؤمنوا بدعوة السلام كل أخ لكل».

وانتشرت الدعوة تؤيدها القوة، فتكاثر جمع المتدينين، وكان لآل سعود من السلطان في ذلك العهد ما كان.

وقد كانت ولادة عبد العزيز في «الرياض» عاصمة الآباء والأجداد، فلم يكد يعي حتى سمع السمار يتحدثون عن ملك ذهب، ودولة طغى عليها عدوان جيرانها. لقد كان آل الرشيد تغلبوا على آل سعود. بل لقد وجد عبد العزيز نفسه محمولًا على بعير في رحلة مع أبويه وخاصتهما، يبرحون الرياض ويضربون في الأفاق، نائين عن أعين آل الرشيد، يقيمون في ضيافة هذه القبيلة حينًا وفي الربع الخالي حينًا آخر، ثم يلقون عصا التسيار في الكويت، ويترعرع عبد العزيز في عشرة آل صباح وداهيتهم «مبارك».

فأبت على عبد العزيز نفسه الوثابة إلا أن يثب. لقد خلق عبد العزيز لغير ما خُلق له غيره من أبناء جيله؛ إنَّ عليه أن يعيد ملك الآباء، وعليه أن يُقيم ذلك الملك على دعائم قوية تمر بها الأعاصير وهي شامخة.

استرد «الرياض» في مغامرة هي أشبه بالأساطير منها بالوقائع، وانتزع الخرج والحريق والحوطة والأفلاج ووادي الدواسر من بين شدقي عدوه. ومضى يدفع غارات ابن رشيد بيد، ويؤسس بيده الأخرى قواعد الملك، وتألب الترك وآل رشيد

بعد استيلائه على القصيم، فكانت له معهم ملاحم «البكرية» وخرج منها يطارد عدوه حتى رآه صريعًا بين يديه.

وعمدت سياسة الترك لضرب سلطان نجد بشريف مكة؛ فأمدت هذا بالمال والرجال، فزحف إلى أطراف نجد، فظفر بسير أطلقه مرغمًا بعد فترة يسيرة، وكانت لا تزال للترك قلاع في الأحساء والقطيف، فجعل ابن سعود رده على الترك اكتساحها.

ونشبت الحرب العالمية الأولى فدار حديث في إحدى خيام ابن سعود ... قال السير «برسي كوكس»: «أتذكر يا طويل العمر، ما قاسيت من نجدات الترك لعدوك ابن رشيد؟». قال: «ما حان لي أن أنسى». قال: «ألا ترى ما يراه الناس من تحفز العراق والشام والحجاز للثورة على الترك؟». قال: «أرى». قال: «ألا تكون رايتهم رايتك، ولك بعد ذلك ملك العرب، وإن شئت فخلافة الإسلام؟». قال: «لا». قال: «ألا تنتهزها فرصة فتنتقم؟». قال عبد العزيز: «لا. لن يقول الناس ثأر عبد العزيز على دولة تسمى بدولة الخلافة في عهد محنتها».

وبعد عامٍ أو عامين كان كبار ساسة لندن يقولون: «فشل برسي كوكس في الرياض ونجح لورنس بمكة».

وتتابعت الحوادث فتنمَّر آل عائض في عسير، وقامت للأشراف دولة في الحجاز فتلفت عبد العزيز، فلم يكن أمر «عسير» بالعسير. وكانت له دولة الحجاز.

خلص الملك لابن سعود في نجد والأحساء والقطيف والحجاز وعسير وتهائم اليمن، واستطاع أن يضرب بيدٍ من حديد على كل قوة طائشة، فأخضع العصي وآمن الخائف، فكان الاستقرار وكان الأمن الذي لم تألفه تلك الأقطار.

لكن دور الامتحان كان صعبًا، فبدأت الفتنة ترفع رأسها في ثورة بل ثورات؛ ثورة في نجد يقوم به الدويش وابن بحار وابن حثلين ... وثورة أخرى في شمال الحجاز يتزعمها ابن رفادة، وثالثة إدريسية في الجنوب. وهنا حالف التوفيق القائد الموفق فقد ذهب الدويش وصاحباه ومن معهم مع الريح، وأمَّا جموع ابن رفادة فقد قيل: إنه لم يخرج منهم حي ... واندرست دولة الأدارسة. وكان لصداقة الأخوين في صنعاء وفي الرياض ثمن .. وأي ثمن. وقيل: «إنه لو كتبت معاهدة لوزان بالقلم الذي كتبت به معاهدة الطائف ما نشبت حرب العالم الثانية».

هذه صفحات ابن سعود بإيجاز.

وعرف عبد العزيز كيف يعيش بعد ذلك.

عاش لطاعة ربه ولرعيته ولأبنائه ولنفسه.

فقد كان يعد نفسه مسؤلًا عن كل فرد من رعاياه، وكأنما هو من أبنائه، يحب كل ابن من بنيه كأنه لم يرزق بسواه، ويمتع نفسه بكل ما أحل خالق الإنسان للإنسان من متع الحياة.

ابن سعود منشئ عرف كيف يبني!

كلمة صادقة كل الصدق. فقد كان كل حجر في بناء الدولة من صنع يديه، وكل نظام أخذت به الجزيرة هو من وحي عقله الكبير. وكل خطوة تقدمت بها في مضمار الحضارة هي من ثمار تجاربه.

سلخ الترك خمسمائة عام في بعض أطراف الجزيرة جاهدين، لتحضير آحاد من البدو فلم يفلحوا. وفي بضع سنوات من حكم ابن سعود انقلب العدد الكبير من أهل الخيام والمضارب إلى سكان مستقرين في القرى والمدن.

عشرات الآلاف من السنين مرت بالجزيرة قلَّ أن عرفت فيها الطمأنينة في تاريخها الطويل؛ ولكنها بفضل عبد العزيز أصبحت آمنة.

أربعة وخمسون عامًا عاشها في المملكة لم يختلف في يوم منها برنامجه ونظامه إلا لطارئ من طوارئ الزمن.. أربعة وخمسون عامًا يتلى بين يديه ساعة معينة كل يوم منها فصل من التفسير، وفصل من التاريخ، يختم على الأكثر بالمناقشة في أهم ما اشتمل عليه.

إنَّ التاريخ في مجراه سيظل يسجل للعظماء سيرًا وتراجم؛ ولكن ستظل صفحة العاهل الكبير جلالة الملك عبد العزيز بن سعود متفردة بين تلك الصفحات بأنه قد نسي نفسه ليذكر قومه. إنه الرجل الفرد الذي عمل لهم ما لم يكونوا قادرين على عمله لأنفسهم، ولا يكاد يساويه ميراث عظيم من عظماء التاريخ الحديث في العالم العربي. وسيظل أمام المؤرخين عملاقًا من عمالقة التاريخ الحقيقيين الذين أسسوا الممالك وأقاموا البنيان على خير ما يقام، وشيدوا الدول على أحسن ما يكون التشييد.

# ظروفُ الرحلة

لماذا كتب العقاد تلك المقالات؟ ولماذا سجل تلك الذكريات عن العاهل الراحل؟! سؤالان جديران بالمناقشة والتفسير قبل السرد والتفصيل. فقد تناقلت وسائل البرق والإعلام في عام (١٩٤٦م) أنباء زيارة العاهل الكبير لمصر. وكان على القائمين في الحكم يومذاك أن يرحبوا بتلك الزيارة الملكية الكريمة .. وكان على الشعب المصري الكريم أن يقيم الزينات ويرفع الأعلام للزائر الكبير. وعلى الفور شكلت لجنة من كبار رجال الدولة والحكم في مصر لتكون في شرف مصاحبته لمصر من ميناء جدة حتى ميناء السويس. وكان العقاد ضمن بعثة الشرف هذه. وفعلًا سافر يوم (٢ يناير سنة ١٩٤٦م) من ميناء السويس على ظهر الباخرة «المحروسة» ممثلًا لمجلس الشيوخ المصري حيث كان عضوًا فيه. وكان معه ضمن تلك البعثة «مراد محسن، وإسماعيل تيمور، والقائمقام محمد حلمي حسين، وكريم ثابت».

وصلت البعثة ميناء جدة في اليوم السابع من يناير، وكان في استقبالها معالي «الشيخ عبد الله السليمان» وزير المالية، و«الشيخ يوسف ياسين» وكيل الخارجية وغيرهم من كبار رجال المملكة، ثم قصدوا قصر «خزام» العامر، وكان في استقبالهم هناك سمو «الأمير منصور» وكيل نائب جلالة الملك، و«الأميران محمد وخالد»، ومعهم لفيف من الوزراء المفوضين ورجال السلك القنصلي من العرب والأجانب. وفي المساء وصلت البعثة إلى مكة المكرمة وهي في ثياب الإحرام للاعتمار، والتشرف بعد المناسك بالسلم على جلالة الملك عبد العزيز لدعوته لزيارة مصر.

وقد ذكر العقاد رحمه الله لنا أنَّ الكعبة الشريفة قد فتحت لهم يوم وصولهم، فزاروا الحرم الشريف وأدوا الصلاة بعد أن طافوا بالكعبة الشريفة.

وقد صور العقاد شعوره في هذه الزيارة في مقال نشره بمجلة «الرسالة» عقب العودة بعنوان «في الحرم» قال فيه:

«ركبنا البحر ونحن لا نعلم على التحقيق أين نلقى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود؛ لأن برنامج الرحلة لا يشير إلى المكان».

فمن الجائز أن يكون في جدة؛ لأنها الميناء الذي ينتقل منه جلالته إلى يخت المحروسة، ولجلالته قصر منيف في أرباضها هو القصر المعروف بـ«قصر خزام».

ومن الجائز أن يكون في مكة المكرمة؛ لأنَّ اليخت يصل إلى جدة قبل سفر جلالته بيومين.

فإذا كان استقبال البعثة الملكية في جدة فلا عمرة ولا إحرام، وإذا كان الاستقبال في مكة المكرمة، فقد وجبت العمرة ووجب الإحرام.

ولكن كيف السبيل إلى الإحرام؟ وكيف السبيل إلى خلع المخيط في الشتاء؛ وإن كان الجو في مكة أدفأ من جو القاهرة بدرجات؟

إنني ألبس الصوف شتاءً وصيفًا منذ خمس وعشرين سنة، وإذا صح أن «الصوفي» منسوب إلى الصوف، فليس على ظهر الأرض رجل أحق مني بهذه الصفة، فيكف السبيل إلى التحلل من هذه الصفة التي لصقت بالموصوف، فلا فكاك منها ولا فرار؟

جاءنا النبأ في عرض البحر بأن صاحب الجلالة عاهل الجزيرة العربية يستقبلنا في قصره العامر بمكة المكرمة، فنوينا الفدية، ونوى أصحابنا الإحرام، ولم يبق معي بملابسه غير «الأستاذ عوض البحراوي» وزير مصر المفوض في المملكة السعودية؛ لأنَّ الإحرام لا يلزمه، وإنما يلزمه أن يطوف بالكعبة عند مغادرة مكة طواف الوداع.

وقد خصصت الحكومة السعودية قصر «الكندرة» بجدة لتبديل الملابس قبل المسير إلى الحرم الشريف. وتولى الإشراف على راحة البعثة ومن معها معالي صاحب المعالي «الشيخ يوسف ياسين» وزير الدولة، وصاحب العزة «فؤاد شاكر» مدير المطبوعات. فلما تهيأ أصحابنا للسفر تحرك الركب بالسيارات، فكان من نصيبي الركوب في سيارة الوزير المفوض «عوض البحراوي»، وهو رجل فاضل عرف أهل البلاد كما عرفه أهلها؛ فانعقدت بينه وبينهم صلات المودة والزمالة، وارتفعت بينهم الكلفة كل الارتفاع، فيما عدا المراسم التي تقضي بها المعاملات الدولية. وقد عبر الطريق مرات فعلمت منه كل ما احتجت إلى علمه من معالمها وأصولها، ووصلت إلى مكة بزاد غير قليل من المعرفة العملية بالحجاز.

هذه جبال مكة.

وهذا جبل حراء.

بلغناه بعد ساعة ونصف ساعة من السير المعتدل في السيارة، ومررنا إليه بمناظر كثيرة نرى أمثالها في بلادنا، ولا سيما بلدي الذي نشأت فيه؛ وأعني به «أسوان». أمَّا الجديد كل الجدة على النظر وعلى النفس فهو غار حراء.

هو قمة مرتفعة في جبلٍ، كأنما بنيت بناء على شكل القبة المستطيلة إلى الأعلى، ولكنها عسيرة المرتقى لا يبلغها المصعد فيها إلا من شعاب وراء شعاب.

أخبرني من صعدوه أنهم كانوا يعانون شديد العناء من وعورة مرتقاه، وأن القليل من الناس يصمد في صعوده إلى نهايته العليا، حيث كان الرسول عليه السلام يتنسك ويبتهل إلى الله.

والحق أنَّ الرؤية غير السماع.

والحق أن ما يلمحه الناظر في نظرة خاطفة قد يعيي الكاتب بوصفه في الصحف والأسفار.

والحق أننا قرأنا ما قرأنا عن الجبل وعن الغار، ثم نظرنا إليها، فعلمنا أن القراءة قد تركت الكثير من فراغ النفس، لتملأه هذه النظرة العابرة في الطريق.

مررنا به عابرين كما كان سكان البلاد يمرون به غادين رائحين في غفلة عن ذلك الرجل المفرد الذي يأوي إليه ويسكن إلى غاره.

كانوا في غفلة عن ذلك الرجل المتوحد في سبيل التوحيد، كما كان العالم كله في مثل تلك الغفلة، وفي مثل تلك الظلمات.

ولكنها كانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور، فلما انقضت مدتها لم يبق في الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار، أو جاهل بآثار تلك الساعات كان يقضيها فيه بالليل والنهار.

وحسبك نظرة واحدة إلى الجبل ومرتقاه لتحيط بعض الإحاطة بتلك النوازع المرهوبة التي كانت تنهض بالرسول في صباه إلى ذروة تلك القمة مرات بعد مرات وأيامًا بعد أيام.

كل مرة من تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعث المحتدمة في نفسه الشريفة، وترينا كيف بلغت هذه البواعث المحتدمة أن تدفع بالعالم كله في طريق غير طريقه، وإلى غاية لم تكن له من قبل في حساب، فلولا لاعج من الشوق الإلهي ينهض

بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر، لما توالت تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العكوف.

إنَّ اللواعج التي حملت الرسول إلى مرتقى الغار هي السر الروحاني الذي استجاش العالم كله بعد ذلك في حركة دافقة تقتحم السدود وتخترق الأسوار والحدود.

وكل ذلك السيل الجارف إنما تجمع قطرات عند هذه القمة العالية.

كل ذلك كان في هذا المكان.

عبرنا خاشعين مطرقين، وسكتنا لأن مهبط الوحي هناك قد ألهمنا السكوت.

مكان آخر عند الكعبة كان له في قلوبنا مثل هذا الخشوع، ومثل هذا الرجوع مع الزمن إلى أيام الرسالة وأيام الجهاد.

ذلك هو موقف الدعاء الذي كان الرسول عليه السلام يختار الوقوف فيه كلما طاف بالكعبة ودعا إلى الله.

أنت هنا ولا ريب في مقام قام فيه ذلك الرسول الكريم؛ ذلك السر السرمدي الذي يتعلق به مقادير التاريخ ومصائر الأمم ومصائر بني الإنسان، ذلك الإنسان الذي يقترن اسمه في صلوات الألوف بعد الألوف باسم خالق الكون العظيم.

أنت هنا تقف حيث وقف، وتدعو حيث دعا، وتنظر حيث نظر، وتحوم بنفسك حيث حام في اليقظة لا في المنام.

قيل لنا: هنا يستجاب الدعاء.

قلنا: نعم، هنا أخلق مكان أن يستجاب فيه دعاء، وألهم الله كلًّا من الواقفين معنا أن يدعو دعاءه، وأن يستجمع في الدنيا والآخرة رجاءه، وساق إلى لساني هذه الدعوة فدعوت: اللّٰهمَّ أولني ما أريد لي وللناس، واجعل الخير كل الخير فيما أريد لي وللناس، وما بي من حاجة في الحياة إذا استجيب هذا الدعاء.

منظر ثالث أخذني بجماله في جوار البيت الحرام، وهو منظر الحمام الآمن الوادع في ذلك المقام.

لا يخشى ولا يفزع، بل يظل طوال نهاره في طواف على الأرض وطواف في الهواء.

وأعجب ما سمعت ورأيت أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها؛ فرادى ولا جماعات.

وقد سمعت بهذه الخاصة في حمام البيت قبل أن أراه، فلما رأيته في طواف العمرة وطواف الوداع، تحريت أن أتعقبه في كل مذهب من مذاهب مطاره، فإذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العبور.

أدب الناس في هذا المقام المهيب نعرف سره ونعرف مصدر الوحي منه إلى القلوب الآدمية.

أمَّا أدب الطير في هذا المقام فسره عند الله.

يبدو أنَّ حمام الحرم هذا كان موضع مناقشة بين العقاد والعاهل الراحل خلال الطريق من جدة إلى ميناء السويس في إحدى الجلسات الأربعة التي كان يتشرف الوفد المرافق بالحضور بمجلس جلالته. فقد كان جلالته يلتقي ببعثة الشرف أربع مرات في اليوم خلال الرحلة؛ الأولى في الصباح، والثانية بعد الغداء، والثالثة عند العصر،

والرابعة بعد العشاء. هذا عدا مائدته الكريمة التي كان يدعوهم إليها لتناول طعام العشاء أو الغداء. وفي كل مجلس من تلك المجالس روى العقاد لي أنَّ جلالته كان يتحدث في موضوعات حديثًا ينم على ما اكتسبه صاحبه في الحياة من تجارب كثيرة، وما حباه الله به من ذاكرة قوية. وإنَّ جلالته كان يتحدث إليهم بعبارة سهلة خالية من كل تكلف، فإذا أراد أن يوجه انتباه سامعيه إلى نقطة معينة في حديثه توقف عن الكلام لحظة وقال: «نعم» بمعنى أليس كذلك... وحينئذ يرد السامعون بما يدل على أنهم يستوعبون الحديث، فيمضي جلالته.

ويضيف العقاد أن جلالته ليس من العظماء الذين يحبون احتكار الحديث في مجالسهم؛ فإذا أراد أحد جلسائه أن يبسط رأيًا، أو يستشهد بواقعة قديمة، أو أن يقص قصة مناسبة للمقام، تركه يفعل ذلك وأَصْغى إليه بعناية تامة، ثم يستأنف جلالته حديثه.

وقد عاود العقاد الكتابة عن «حمام الحرم» على صفحات «الرسالة» فكتب يقول:

«أشرت في مقالي السابق عن الرحلة الحجازية إلى حمام الحرم فقلت من أعجب ما سمعته ورأيته من شأنه .. أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها؛ فرادى ولا جماعات»[1].

وهذه خاصة لا بدَّ لها من سبب مفهوم، ولا بدَّ من استقصائها في جميع أحوالها قبل التيقن منها، وقبل تعليلها بالخوارق التي لا تقبل التعليل؛ فإنَّ الذهن لا يقبل الخارقة إلا إذا ضاقت به علل الطبائع التي أودعها الله في خلقه وتواترت بها المشاهدة في جميع الأحوال، وبخاصة حين لا يكون هناك مقتضى من حكم الدين ولا حكم

(١) مجلة الرسالة، العدد ٦٥٥، الصادر بتاريخ الإثنين ١٧ صفر سنة ١٣٦٥هـ، ٢١ يناير سنة ١٩٤٦م.

العادة؛ لامتناع الطيران في فضاء الكعبة أو أي فضاء مقدس مصون، ولا معابة على فضاء السماء في كل مكان أن تحلق فيه الطيور أو تعبر به الطائرات.

وقد شغلني أن أتيقن أولًا من تطابق الأقوال على اطراد هذه الظاهرة، وأن أجرب حمامًا غير حمام الحرم، لأرى كيف يطير إذا أطلق في جوانب الكعبة وحده، وأن أجرب طيرًا غير الحمام من القماري أو العصافير أو فصائل اليمام؛ لأن الجوارح قد يصرفها النظر إلى فرائسها عن تحقيق التجربة بما يفيد الحرية في اختيار جو الطيران، وخطر لي قول الطائي:

**يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء**

ولكن الطير يسقط حيث يلتقط الحب ولا يقصر طيرانه على مواضع التقاطه، فإذا كان حمام البيت قد تعود أن يلتقط غذاءه في المماشي التي حول الكعبة، فليس ثمه ما يمنعه إذا صعد في الجو أن يتجاوز تلك المماشي إلى ما جاورها، وهو قريب من قريب.

وأوصيت بعض رفاقنا أن يراقبوا هذه الظاهرة في زياراتهم المتعددة وهم يزورون البيت متفرقين، حسب النوبة التي يفرغون فيها من العمل في اليخت أو الطوافتين[1]. فلما عادوا جميعًا كفيت مؤنة التجربة أو التجارب الكثيرة التي كان لا بدَّ لنا منها قبل التيقن من تلك الظاهرة، وتعليلها بما يكشفها على جليتها؛ لأنَّ ثلاثة منهم اتفقوا على أنهم شاهدوا الحمام يطير أحيانًا فوق الكعبة؛ وإن لم يكن ذلك مطردًا في جميع الأوقات. وممن شاهدوا ذلك أمام اليخت الملكي المحروسة وهو شاب مهذب أديب حسن المعرفة بالدين، حسن التفسير لأحكامه وفروضه، فإنه قال: إنَّ الحمام يطير فوق الكعبة ولكنهم يلحظون فيما يطير منه عليها شيئًا من الضعف والانكسار، كأنه مريض

(١) كانت ترافق الباخرة «المحروسة» في رحلتها لميناء جدة؛ ليستقبلها الضيف الكبير طوافتان مصريتان.

يلتمس الشفاء ببركة العبور على ذلك المقام، وهذا وحده يبطل ما ذهبوا إليه من تلك الملاحظة .. لأنَّ طالب البركة لا يلتمسها بما يخالف حرمة المكان فيما جرى عليه عرفه أو عرف بداهته الفطرية، فإن كان طير البيت يتجنب الطيران فوق الكعبة تقديسًا لها كما يتخيلون، فليس من شأنه أن يلتمس البركة بما يخالف التقديس.

وقد أصبحت الظاهرة معقولة بعد ما سمعته من تلك المشاهدات بغير خارقة أو التجاء إلى إغراب.

حتى ندرة الطيران فوق الكعبة لا تستعصي على التفسير الموافق للعادات والمشاهدات، فإن الحمام الأليف يجتمع إلى أسرابه في ملاقط الحب؛ ولكنه لا يطير أسرابًا كالفصائل البرية من نوعه حين تهاجر من مكان إلى مكان. فإذا جاوز الحمام الأليف مساقط أسرابه فإنما يطير زوجين زوجين، أو فردًا فردًا في التماس أليفه الذي يغيب عن نظره وسط الأسراب، وهذه العادة خليقة بأن تفسر لنا ندرة الطيران على بعد من المماشي التي يتجمع فيها الحمام، كما تفسر لنا بطء حركة الطائر الذي يخرج على الطريق في بحثه واستطلاعه؛ لأنه لا ينوي الطيران إلى بعيد حيث يعبر فضاء الكعبة لينظر حولها إلى أليفه المفقود.

على أنَّ جمال المعنى الذي يتمثل في حمام الحرم لا ينقص ذرة بطيرانه هنا أو طيرانه هناك؛ لأن معناه الجميل هو الأمن في حماية الإيمان لا في حماية الحراس أو حماية الأبراج والسدود. فهذا أضعف الطير يراه الجائع والطامع ولا يمسه بسوء، وهو يطمئن إلى هذا الأمن بطبعه؛ وإن لم يفهمه بعقل فيه يفهم أمثال هذه الأمور، فلا يجفل من الإنسان ولا تراه يطير منه إلا طيران الدلال واللعب؛ لا طيران الفزع والاضطراب».

**ثم ختم العقاد مقاله هذا عن «حمام الحرم» بقوله:**

«ولسنا نختم هذا المقال قبل أن نستوفي سيرة الحمام، كما عرضت خلال الزيارة الحجازية إما بمكة أو خلال الطريق».

فقد كان الحمام ذات عشاء من بعض صحاف المائدة على اليخت «المحروسة» أثناء عودته الأولى من جدة إلى السويس، فعلمنا أن جلالة الملك عبد العزيز لا يأكل منه ولا السمك على اختلافه إلا في النادر القليل.

وأراد صاحب السعادة مراد محسن «باشا» أن يوفق بين رغبة الملك عنه ورأي بعض الفقهاء في تحريمه، فقال: إنَّ أناسًا من المتشددين يحرمون أكل الحمام الذي يربى في بروج الحقول والغيطان.

فصمت جلالة الملك وتردد ثم سأله: ولم يحرِّمونه؟

قال مراد «باشا»: لأنهم يتركونه يأكل من مال غيرهم ولا يطعمونه من عندهم، فحرَّمه أولئك الفقهاء كما يحرِّمون مال «الغير» المأخوذ بغير علم من أصحابه.

ولكن جلالة الملك ظلَّ على تردده، والتفت إلى أخيه صاحب السمو عبد الله بن عبد الرحمن كمن يستفسر رأيه في التحريم.

فقال سمو الأمير: لا حرج في أكله، وما أرى وجهًا لتحريمه ولا قولًا يُعتد به في ذلك؛ وإنما حُكمه حكم العصافير التي تأوي إلى أشجار الناس وتأكل من حيث أصابت الطعام.

وأطرف من هذا أن رئيسًا من رؤساء الحكومة السعودية سأل الباشا: أهم يحرمون من الحمام الـ pigeon أو الـDove turtle؟ لأن الأول يأوي إلى البيوت، والثاني قلما يأوي إليها وإن عرفت الأمم القديمة استثنائية في بعض البلدان.

فكان هذا السؤال مما لم يخطر على البال، قبل الاستدلال على الحرام والحلال[1].

وذكر العقاد أنَّ جلالة الملك عبد العزيز لا يغفل الفكاهة في بعض أحاديثه الخاصة، وهذه آية من آيات العظمة الإنسانية كما يراها العقاد.

فالعظيم الذي لا يطرب للفكاهة ليس بعظيم. وقد سجل العقاد هذا الجانب في شخص العاهل الراحل في مقاله الذي كتبه عقب الزيارة الملكية الكريمة لمصر على صفحات مجلة «الكتاب» تحت عنوان: «في جو العروبة مع عاهل الجزيرة العربية» بدأه بقوله:

«تحدثنا الفكاهة المصرية عن حاكم جاهل من حكام القرون الوسطى سمع مصريًّا يقول: النبيُّ عربي! وكان هو تركيًّا، فأخذته عزة العصبية وصاح فيه: نبي عربي ولكن تركي!».

ذكرت هذه الفكاهة المصرية في ليلتنا الأولى بيخت المحروسة على متن البحر الأحمر، وكنا نتهيبه لأننا لا نطيق دوار البحر؛ وإن كنا قليلًا ما نشعر بالدوار في الهواء، ولكن الله بارك في الرحلة من بدايتها إلى نهايتها، فركبنا البحر شتاء كأننا نركب النيل في أيام الصفو والهدوء، وكانت السماء في الليلة الأولى على الخصوص صافية مصحية لا تحجب عنا ذخيرة واحدة من ذخائرها الكثيرة، ولم تكن الليلة من الليالي القمراء، فعرضت علينا السماء كل ما وسعت من جواريها وثوابتها على السواء، ولم تدع عندها

(١) مجلة «الرسالة» العدد ٦٥٩، الصادر الإثنين ١٦ ربيع الأول، ١٨ فبراير سنة ١٩٤٦م.

من نجم بعيد أو قريب تستره في الخفاء. وصعدنا إلى سطح اليخت الأعلى عند مرقب الربان لنتملى بأعيننا ونفوسنا هذا المنظر الجميل، كأننا نرتفع من الماء إلى الآفاق العلوية، ونعجب لقول القائل: أين الماء من السماء؟ لأن الإنسان في الماء أقرب ما يكون إلى السماوات والأفلاك، فهي الدليل الذي يستقبله هناك حيث يسير.

وكان اليخت في قيادة البحري الكبير صاحب السعادة أمير البحر «سالم البدن» وهو من أبناء البحر المعرقين -إذا صح هذا التعبير- لأنه ينتمي إلى أسرة تقدمه فيها الآباء والأجداد إلى قيادة السفن الكبيرة منذ مئات السنين، وقد تعلم فنون صناعته الدقيقة، ومنها الفلك والظواهر الجوية وأحياء البحار المختلفة، فرأيناه -كما قلنا له- يعلم من طرق السماء وطرق البحار، فوق ما يعلم من طرق القاهرة والإسكندرية.

وقد كانت الفرصة في تلك الليلة سانحة لنستمع إليه وهو يشرح لنا مواقع النجوم الثوابت ومواقع الكواكب السيارة التي تظهر على الأفق في ذلك المساء، وشفع ببيان الأساليب العلمية التي ينتفع بها لتحقيق مكان السفينة من رؤية تلك النجوم والسيارات، أو من المقابلة بين زواياها ومواقعها من السمت والأفق في ساعات الليل: هذه الجوزاء، وهذا النطاق، وهذه المنطقة، وهذا النظام، وكلها على ما نذكر تعرف في اللغات الأوربية بألفاظها العربية فتقولون: Almilam وMintaka وALnltak ويسمونه عائق الثريا Otik ويسمون السرة من مجموعة السلسة Sirrah. وغير ذلك كثير يطول بناء إحصاؤه في هذا المقام.

خطرت لي تلك الفكاهة المصرية التي أشرنا إليها في مطلع هذا المقال وأنا أنظر إلى النجوم والكواكب التي يعرفها الشرقيون والغربيون بأسمائها في لغة الضاد. فقلت: إن السماء عربية أيها الإخوان! ولو جرينا على طريقة بعض الأثريين ووجدنا مدينة

محفوظة المعالم بأمثال تلك الأسماء لما ترددنا في نسبتها على وجه من الوجوه إلى قوم من أبناء يعرب وقحطان.

السماء عربية ...

والبحر الذي نحن عليه ماذا يكون؟

إنَّ جو العروبة قد غمرنا منذ خطوات الرحلة الأولى، فتعودنا أن نلتمس العلاقة بينه وبين كل ما رأيناه وسمعناه، وقد عرفنا مكان السماء من العروبة، فبقي أن نعرف منها مكان الماء، ولم نقل كما قال الأسبقون: وأين الماء من السماء؟

وجزى الله أصحابنا اللغويين من أصحاب التمحل والتأويل ... لأنهم لا يضيقون بنسبة شيءٍ إلى العربية ولو كان بينه وبينها ما بين الماء والسماء...!

فلا تنس أن البحر الأحمر يدعى ببحر القلزم؛ وأن القلزمة على قول أصحابنا اللغويين المتأولين مقلوبة من «الزلقمة» وهي الابتلاع من الزلقوم أو الحلقوم.. قالوا: ولعله سمي بذلك لأنه ابتلع فرعون وجنوده وهم يطاردون موسى الكليم.

ولكن أصحابنا اللغويين هؤلاء ينسون مدينة «كليزما» التي كانت على مقربة من السويس قبل أن ينحسر البحر عن موقع السويس الجديد، وينسون أن البحر قد استمد اسمه من هذه المدينة فسمي بـ«بحر كليزما» وصحف إلى بحر «القلزم» على الألسنة العربية، ثم استعير هذا الاسم للبئر الغزيرة، فعرفت في العربية باسم القليدم والقليدم، وقال شاعرهم في بعض هذه الآثار:

**إن لنا قليذما قذوما  يزيده مخج الدلا جموما**

فحسب أصحابنا اللغويين إذن من العلاقة بين هذا البحر وبين العروبة أنه البحر الذي أحيطت شواطئه جميعًا بمعاشر الناطقين بالضاد، وأنهم قلدوه بعد ذلك اسمًا عربيًّا موصوفًا بالحمرة فقالوا: إنه «البحر الأحمر» لما يبدو عليه من احمرار اللون من أثر الشعاب الحمراء التي فيه والجبال الحمراء التي عليه، ولا سيما عند مدخله في خليجي العقبة والسويس.

ولقد كان جو العربية يغمر الرفقة جميعًا في الإياب كما غمرهم في الذهاب. فلم نجتمع قط في مجلس على متن اليخت إلا عرضت فيه مسألة من مسائل العربية أو مسألة من مسائل العروبة منذ نشأتها الأولى، واتفق أن سأل: لم سمي العرب عربًا على ألسنتهم وألسنة غيرهم؟

واتفق أنني سئلت هذا السؤال ونقلت محطة الإذاعة في الشرق الأدنى جوابي عليه قبل سفري إلى الحجاز، وخلاصته أن كلمة «العرب» مأخوذة من كلمة «الغرب» بحرف الغين وهو حرف ضعيف في اللغات السامية غير العربية، فكان سكان ما بين النهرين ينظرون إلى الشرق، ويسمون اليمن «يمنًا» لأنها على يمينهم، والشام شمالًا لأنها شمالهم، والصحراء الغربية غربًا لأنها في الجهة الغربية من بلادهم، وتمت بذلك مواقع الجهات الأربع في نظر الساميين المقيمين بين النهرين.

فلما سئل هذا السؤال أصغيت إلى رأي الرحالة البحاثة الأستاذ «فلبي» فسرني أنه يطابق كل المطابقة ما اعتمدته بين مختلف الآراء، وزاد عليه الأستاذ «فلبي» أنه يرد كلمة أوربة إلى هذا المصدر لأنها غربية، وهو رأي له قيمته الراجحة لما عرف من اشتغال الأستاذ بهذا المباحث واطلاعه على مراجعها النادرة في الأوراق والحجارة المكتوبة.

وهنا اختلف رأي الأستاذ «فلبي» ورأى الأمير العالم عبد الله بن عبد الرحمن - أخي جلالة الملك عبد العزيز- كل الاختلاف، والأمير عبد الله كما هو مشهور عنه أعلم الإخوان النجديين بالثقافة الإسلامية والتواريخ العربية، ويقول عنه جلالة أخيه كلما استطرد الحديث إلى مسألة من مسائل الفقه أو العلم متواضعًا صريحًا في تواضعه الجميل: إنَّ الحروب شغلتني عن التبحر في العلوم والتوسع في الدراسة، أما الذي استوفى نصيبه منها فهو هذا ... ويشير إلى سمو الأمير حيث كان في مجلسه بجواره.

فلما عرضت الإشارة إلى الحجارة المكتوبة شك صاحب السمو في قيمتها التاريخية، وقال: إنها قابلة للزيف وسوء التفسير، واستشهد بحجر مكتوب تنسب الكتابة التي عليه لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهي نسبة مقطوع ببطلانها، وكان من رأيي أن هذه الحجارة قيمة في الدلالة التاريخية على شريطة واحدة: وهي أن تقترن بغيرها من الدلائل وأن تتفق في مجموع دلائلها فلا تتناقض ولا تتضارب. ولو شئت أن أذهب إلى بطلانها معتمدًا على بطلان القول بانتماء السماء إلى الناطقين بالضاد، كما يطلق على معالمها من لغاتهم، لذكرت ذلك في هذا السياق، ولكن القياس هنا قياس مع الفارق كما لا يخفى؛ لأن صعود العرب إلى الكواكب أمر نستطيع أن نشك فيه، ولكننا لا نشك في نزولهم القديم بتلك المنازل التي عثر فيها الأستاذ «فلبي» على ألوف الحجارة المكتوبة، ثم قابل بينها وبين ما عنده من الأسانيد الأخرى.

وسئل عن الأصل في اسم مكة، فقيل كما قال الأصمعي: إنها من تمككت المخ إذا استخرجته؛ لأنها تمك الفاجر عنها، أو أنها «بكة» لأن الناس يبك بعضهم بعضًا فيها؛ أي يتدافعون ويتزاحمون، ومن ذلك قول الشاعر:

**إذا الشر يبت أخذته أكه ... فخله حتى يبك ببكه**

ومن المعلوم أنَّ القرآن الكريم ذكرها بأسماء ثلاثة، وهي: «مكة، وبكة، وأم القرى»، وليس أصل الاسم القديم بالمعروف على وجه التحقيق.

قال الأستاذ «فلبي»: إنه لا يعرف أصل هذه التسمية؛ ولكنه لا يشك في وجودها منذ عهد إبراهيم عليه السلام.

وقلت: مصداق ذلك أنها وردت في كتاب بطليموس الجغرافي وسماها Macoraba ولعله مزج بين اسم مكة واسم سكانها العرب بهذا التركيب[1].

ذلك مثل من الجو التاريخي أو الجو اللغوي الذي كان يحيط بنا في رحلتنا إلى الحجاز بحرًا وبرًا، وفي الذهاب وفي الإياب.

ولكننا اشتملنا على جو العروبة من جميع نواحيه حين دار الكلام على الجامعة العربية في مجلس العاهل العظيم جلالة الملك عبد العزيز؛ لأن جلالته ولا ريب ركن من أثبت أركان هذه الجامعة، وسند من أعظم إسنادها، فإذا تكلم عنها فرأيه فيها يقوم بأقوم الأوزان ويناط به أقوى الرجاء في مصيرها.

وجلالته يؤمن بلزوم الجامعة، ويعتقد أن كرامة الشعوب العربية جميعًا مرهونة ببقائها ونجاحها. ويسميها منارًا ودريئة لكل دولة عربية تشترك فيها...»[2].

وللعقاد مقال آخر عن رحلته مع العاهل الكبير نشره على صفحات مجلة «المصور» تحت عنوان «مع الملك عبد العزيز في البحر».

---

(١) «مطلع النور» للعقاد، الطبعة الثانية، ص: ١٧٩، ١٨٠.

(٢) مجلة الكتاب، السنة الأولى، الجزء الرابع، ص١٣٦٥، فبراير سنة ١٩٤٦م، ص٤٥٠ وما بعدها، مقال العقاد.

«إذا عرفت الملك عبد العزيز ثلاثة أيام فكأنك قد عرفته ثلاث سنوات، أو لازمته في أطول الأوقات؛ لأن هذا الرجل العظيم مطبوع على الصراحة ووضوح المزاج، لم تستمل نفسه القوية على جانب من جوانب الغموض التي يحدث منها اختلاف الحالات وتناقض العادات. فهو في أخلاقه وأعماله ومألوفاته يمضي على وتيرة واحدة، ولا يواجه عارفيه في حالتي رضاه أو غضبه بخليقة لم تكن لهم في الحسبان.

وأول ما يدهشك من منظره قوة النفس والعقل والحس على السواء. وهو الآن يناهز السابعة والستين، ويحتفظ بجميع أسنانه، كما يحتفظ بقوة عضلية لا تتوافر لكثيرين في سن العشرين أو الثلاثين.

فجلالته منذ الصبا لا يميل إلى الإكثار من ألوان الطعام، ولا يحب الدسم ولا الحلوى، ويقصر غذاءه في معظم الوجبات على الأرز واللحم غير ناضج كل النضج، ويحب من الخضر «البامية» على الخصوص، ولكنه يكتفي منها بمرقها، وقلما يصيب من حباتها، وقد يشرب قليلًا من الماء على الطعام يحمله خادمه الأمين «مرجان» في كوب طويل ويقف به وراء جلالته ما دام على المائدة. ويتفضل جلالته فيناول الكوب من يختصهم من ضيوفه بالحفاوة والإكرام.

أخبرنا جلالته أنه منذ عشر سنين[1] لم يشرب ماء من غير عين «الجعرانة» في الحجاز وعين «البديعة» في نجد. وقد شربنا من مائهما، فإذا هو ماء صاف سائغ المذاق، ونرجح أنه يحتوي بعض الخصائص المعدنية التي تساعد على هضم الطعام.

(١) أي منذ عام (١٩٣٦م) لأنَّ الزيارة كانت في يناير (١٩٤٦م) كما هو معروف.

وربما استغنى جلالته عن شرب الماء بشرب اللبن المخيض بعد الغذاء أو بعد العشاء .. فيطلبه جلالته أحيانًا ويتناول منه جرعات، ويأمر به لمن حوله من الضيوف .. وهو غذاء طيب الطعم مفيد للجسم، قال الطبيب العالمي المشهور «منشينكوف»: إنه من أفضل الأغذية لتطهير الجهاز الهضمي، وذكر أن أمم البلقان تطول فيها الأعمار لمواظبتهم عليه.

وجلالته يبكر بالإفطار، ويأمر بالغذاء في الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ولا يتأخر عشاؤه عن الساعة السادسة في المساء.

ومواعيده في النوم واليقظة منتظمة في جميع المواسم والأوقات، فيستيقظ قبل الفجر ويقضي نحو ساعة في التهجد وقراءة القرآن، ويصلي الفجر حاضرًا، ثم يستقبل بعض خاصته لاطلاعه على مهام الأمور التي تتطلب التعجيل، ثم يغفي قليلًا ويخرج للناس.

ومن عاداته بعد العشاء أن يصغي إلى فصول من كتب التفسير والحديث، أو كتب الأدب والتاريخ، ثم تتلى عليه أخبار الإذاعة التي يتلقاها الموظف المنوط بها من أهم المحطات العربية والشرقية، فيعقب عليها أحيانًا تعقيبًا موجزًا يدل على بعد النظر وتتبع الأحوال السياسية في مشارق الأرض ومغاربها.

والملك عبد العزيز محدث طلق الحديث يرسل أحاديثه على السجية بغير كلفة، ويعرب عن رأيه الصراح بغير مداراة. ومن صراحته المستحبة أنه يحث على الاقتداء بالأوربيين في الأمور النافعة والعلوم الحديثة، وفي المجال السياسي أيضًا، ويقول: إنهم يمكرون ونحن أمكر منهم {ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين}.

وتدور أحاديث جلالته على الذكريات التاريخية والمواعظ الدينية والتعقيب على الحوادث الهامة والمسائل العالمية، ويستشهد بالآيات القرآنية في مواضعها، ويروي الأحاديث النبوية في مناسباتها، وقد يروي الأبيات من الشعر ويسوق العبر من النوادر والأمثال.

كان جلالته يصف لنا ربيع نجد وجمال الوهاد والروابي في أيامه، ويقول: إن الأزهار والرياض كانت تفرش الأرض في تلك الأيام على مسافات طوال حتى ليحسب العابر بها أنه في دكان عطار تنفحه بمختلف العطور، ولا سيما بعد نزول القطر، ثم قال وهو يلتفت إلينا:

إنه صبا نجد ورباه تغنى بهما الشعراء من قديم، مشيرًا إلى قول ابن الدمينة:

**ألا يا صبا نجد متى هجدت من نجد لقد زادني مسراك وجدًا على وجد**

وقول الأموي:

**ألأ يا حبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار**

ولما مثل رجال البعثة وكبار موظفي «المحروسة» بين يدي جلالته عقب تشريفه اليخت قال لهم: إن الحديث يهون الطريق، ثم قال: أتعرفون قصة «حق وطبقة».

إن حقًّا هذا كان فتى يصاحب شيخًا في سفر طويل. فقال للشيخ في أول الطريق: أتحملني أم أحملك، فلم يفهم الشيخ مراده وقال في نفسه: ما هذا الفتى إلا مخبول. وما حاجته إلى حملي أو حمله وكلانا يمتطي ذلوله ويحمل زاده، ولم يجاوزا غير قليل حتى عبرا بقوم يزرعون أرضًا لهم، فسأل الفتى الشيخ: أتراهم يزرعون لأنفسهم أم يزرعون لغيرهم؟ فصح عند الشيخ أن الفتى مخبول ما في خباله ريب، يرى قومًا

يزرعون بأيديهم في أرضهم ثم يسأل: أيزرعون لأنفسهم أم يزرعون لآخرين؟ وكانت ثالثة الأثافي أنهم عبروا بجنازة تشيع ميتًا في نعشه، فعاد الفتى إلى أسئلته الغريبة وقال للشيخ: أميت هذا الذي يحملونه أم حي لا يموت؟ فما بقيت في نفس الشيخ ذرة من الشك في جنونه، ودخل إلى منزل وفيه بنيته «طبقة» فأعاد عليها حديث الفتى وهو يتهم عقله لتعرفه فتعامله معاملة المجانين ... قالت «طبقة»: ما هذا الفتى بمجنون يا أبتاه ولكنه ذكي بالغ الذكاء؛ وإنما سألك أتحملني أم أحملك وهو يعني أن تحدثه أو يحدثك فيهون عليكما تعب الطريق. وسألك عن الزرع ألأهله هو أم لغير أهله وهو يعني الديون التي تذهب بثمرات الزارعين والعاملين، وسألك عن الميت وهو يعني بالحياة الذكرى والذرية. فإذا ذهب الرجل دون أن يذكر بحسبه أو ذرية صالحة فقد مات وانقضى. وإلا فهو في عداد الأحياء.

وقد كنت أود أن تتهيأ الفرصة لنسمع إلى جلالته العظيم وهو يتحدث عن ذكرياته في أيام الجهاد وعن الجامعة العربية وما يقدر لها من التوفيق، فأسعدنا الحظ وظفرنا بالحديث في الموضوعين. إذ سنحت هذه الفرصة يوم الاحتفال بعيد جلوسه. فقص علينا جلالته كيف استرد الرياض بنحو أربعين رجلًا منهم ستة يقتحم بهم الأسوار تحت ظلام الليل، وكيف ودعه والده وهو يقول له: إنه «مهبل» أو مجنون!

قال زميلنا «الأستاذ كريم ثابت»: وماذا كان رأي والدكم يا صاحب الجلالة بعد فتح الرياض؟

فابتسم جلالته وقال وقد بَدَا على وجهه التأثر والحنان: «رحمة الله على والدي لقد كان يعاملني كأنني أنا الوالد وهو الولد. وما رأيت قط معاملة كهذه بين الآباء والأبناء أو بين الإخوة والأقربين».

وقد ألقى أديب العربية وكاتبها الأكبر وشاعرها العظيم الأستاذ عباس محمود العقاد هذه القصيدة بين يدي الملك عبد العزيز آل سعود في اليخت الملكي «المحروسة» يوم ذكرى جلوس جلالته، وذلك في يوم ٥ صفر ١٣٦٥هـ (٩ يناير ١٩٤٦م) وقُوبلت بالإعجاب البالغ والاستحسان الذي لا مزيد عليه، والتصفيق الذي لا حدَّ له:

أسد العرين يخوض غيل الماء ... يا بحر راضك قاهر الصحراء
حياة باديها وحاضرها معًا ... فاغنم تحية يومه الوضاء
يوم من البشرى يردد ذكره ... ركب السفين وجيرة البيداء
عش يا طويل العمر عيش معمر ... تحيا به أمم من الأحياء
ما خص طالعك الرياض بيمنه ... بل فاض من عمم على الأرجاء
حق المواطن حين يذكر عهده ... في الحمد والتبريك حق سواء
لا غرو نذكره ونهتف باسمه ... في هذه الآفاق والأجواء
#إن الذي غمر المليك بفضله ... ##ساق البحار إليه في البشراء
#لم يقترن بالبحر عيد جلوسه ... ##إلا لعمر زاخر ورخاء
#وإذا به عبد العزيز بطلعة ... ##كالبدر بين كواكب الأمراء
#وأرى السماء تأملت مرآتها ... ##في الماء فانطبعت على الخضراء
#أرض النبوة حين تم فخارها ... ##خلعت عوارفها على الدأماء
#ملك أناف على العقول بعزمة ... ##وأتم ذاك بما يراه الرائي
#جمع المهابة في العيون وفي النهى ... ##وسما بمجد أبوة وإباء
#يرعاه بارئه ويحرس ركبه ... ##في كل أرض تحت كل سماء
#الشرق والإسلام قد سعدا بمن ... ##يعلو بآلهما إلى الجوزاء

#في ظـل فـاروق وظـل صـديقه ##عبـد العزيـز يـتم كـل رجـاء

وعلى قدر توقيره وحنانه لذكرى والده رحمه الله رأينا آيات العطف والمحبة على ملامح وجهه كلما نظر إلى أصحاب السمو أبنائه النجباء، وهو يسميهم «ربعه» ويحب أن يراهم أمامه على مائدة الطعام.

فهو ابن بار كريم، وأب عطوف كريم.

أمَّا الجامعة العربية فقد أفاض جلالته في الحديث عنها وقدرها تقديرها المحكم حين قال: «إنها منار لنا لأنها تصدر في أعمالها عن بحوث مشتركة بين ذوي الرأي والبصيرة يرون في جملتهم ما لا يراه أهل كل بلد على انفراد، وأنها دريئة للدول العربية لأن حجة الدولة التي تحتج بقرار الجامعة قائمة، وعذرها فيما ترضاه أو تأباه مقبول».

ومن الأحاديث التي يطرحها جلالته حديث الصيد والقنص في الصحراء؛ لأنه رياضته المفضلة كلما اتسع لها وقته.

وقد حدثنا جلالته حديثًا شائقًا عن صيد الغزال في «القيظ»، وصيد الحبارى في أواخر الشتاء. وخيل إلينا من حماسته أنه يتكلم وهو في الطراد.

ومن تواضع جلالته وإنصافه أنه يعطي كل ذي حق حقه من الخصوم والأصدقاء. ذكر خصمه ابن الرشيد: إنه كان شجاعًا مقدامًا ولكن «ما عنده رأي» ويعيبه البخل.

عرضت مسألة فقهية فقال في تواضع جم: «إن الغزوات والحروب لم تدع لي وقتًا للتبحر في العلوم؛ ولكن الذي تبحر فيها هو هذا ... فهو أعلم الإخوان -وأشار إلى أخيه صاحب السمو الأمير عبد الله.

والواقع أن الألمعية تبدو على وجه الأمير من النظرة الأولى. ويبدو نصيبه الوافر من الدراسات الإسلامية من مبادرته بالفتوى المسندة عن كل مسألة يستطرد إليها الحديث. وقد حضرت له مناقشة مع الرحالة البحاثة «فلبي» Philby عن قيمة الحفريات والأحجار المكتوبة في الدلالة التاريخية كان فيها مدافعًا محسن الدفاع، وإن خالفناه في بعض ما رآه.

والشيء المستغرب حقًّا هو مبلغ اطلاع الأمراء على أحوال مصر وأخبار عظمائها وعلمائها وذوي النباهة والشأن من أهلها. ولو كان هذا الاطلاع مقصورًا على كبارهم الذين بلغوا العشرين مثلًا أو ما جاوزها لقلت الغرابة، ولكنه يعم الكبار والصغار، وترى دلائله فيمن لم يجاوز منهم الخامسة عشرة أو جاوزها بقليل، ولو سردنا طرائفهم في ذلك لضاقت بها الفصول بعد الفصول»[1].

وقد خص العقاد بقلمه السادة الأمراء السعوديين[2] بمقال ضمنه ذكرياته معهم نشره بمجلة «روز اليوسف» عقب عودته من الرحلة قال فيه:

---

(١) مجلة «المصور» الصادرة بالقاهرة في ٢٥ يناير سنة ١٩٤٦م، مقال العقاد «مع الملك عبد العزيز في البحر».

(٢) أنجال جلالة الملك عبد العزيز هم السادة الأمراء حسب ترتيب أعمارهم:

١- **تركي**، توفي ١٣٣٧هـ (١٩١٩م).

٢- **سعود** (الملك) ولد سنة ١٣١٩هـ (١٩٠٢م). توفي سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٩م).

٣- **فيصل** (الملك) ولد سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م).

٤- **محمد**، ولد سنة ١٣٣٠هـ (١٩١٢م).

٥- **خالد**، ولد سنة ١٣٣١هـ (١٩١٣م).

٦- **ناصر**، ولد سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م).

٧- **مسعد**، ولد سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م).

٨- **فهد**، ولد سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م).

٩- **منصور**، ولد سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م)، توفي ١٣٧٠هـ (١٩٥١م).

١٠- **عبد الله**، ولد سنة ١٣٤٠هـ (١٩٢١م).

١١- **بندر**، ولد سنة ١٩٤١هـ (١٩٢٢م).

١٢- **سلطان**، ولد سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م).

١٣- **مشعل**، ولد سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م).

١٤- **مساعد**، ولد سنة ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م).

١٥- **عبد المحسن**، ولد سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٧م).

١٦- **مشاري**، ولد سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م).

١٧- **متعب**، ولد سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م).

١٨- **طلال**، ولد سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م).

١٩- **عبد الرحمن**، ولد سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م).

٢٠- **بدر**، ولد سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م).

٢١- **تركي**، ولد سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م).

٢٢- **نواف**، ولد سنة ١٣٣٢هـ (١٩٣٣م).

٢٣- **نايف**، ولد سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م).

٢٤- **فواز**، ولد سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٤م).

٢٥- **سلمان**، ولد سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).

٢٦- **ماجد**، ولد سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م).

٢٧- **عبد الإله**، ولد سنة ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م).

٢٨- **أحمد**، ولد سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م).

٢٩- **سطام**، ولد سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م).

٣٠- **تامر**، ولد سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م).

٣١- **ممدوح**، ولد سنة ١٣٦٠هـ (١٩٤١م).

٣٢- **مشهور**، ولد سنة ١٣٦٠هـ (١٩٤١م).

٣٣- **هذلول**، ولد سنة ١٣٦٠هـ (١٩٤١م).

٣٤- **عبد المجيد**، ولد سنة ١٣٩١هـ (١٩٤٢م).

٣٥- **مقرن**، ولد سنة ١٣٦١هـ (١٩٤٢م).

«الجوانب التي يتناولها الكلام عن عاهل الجزيرة العربية أو المملكة السعودية كثيرة متعددة يجول بينها الكاتب في عالم واسع من المشاهدات والأخبار ومن الذكريات التاريخية والشعائر الدينية؛ ولكننا نعتقد أن الكلام عن عاهل الجزيرة نفسه لا يتم ولا يتصور للناس صورته الحقيقة ما لم يتناول جانب «الأبوة» منه، وهو الجانب الإنسان الحي الذي يتراءى من النظرة الأولى لمن يحضر مجلس العاهل العظيم ويرى على ملامحه الواضحة أمارات الرضى والغبطة وهو يكلم واحدًا منهم، أو يراهم حافين به متطلعين إليه، يحبونه حب الأب الودود ويهابونه مهابة السيد المطاع، وجملة ما يقال في النظرة التي ينظر بها جلالته إلى أبنائه أنه يحتضنهم بعينيه ويشعر بالارتياح الشامل وهم على مشهدٍ منه.

ومكان أصحاب السمو الأمراء في قاعة الاستقبال الكبرى بالقصر الملكي في مكة المكرمة هو أقصى مكان؛ لأنَّ مقامهم كما قال لهم جلالته محفوظ ملحوظ، والضيوف في المجلس أولى بالتوسعة والترحيب، ولكنهم يجلسون أمامه صفًّا واحدًا على مائدة الطعام، ويقفون على يسار جلالته إذا وقف في عرض أو احتفال.

عرَّفنا جلالته إلى سموهم في القصر الملكي فلم يتردد همسة واحدة في ذكرهم بأسمائهم على التوالي، مع سرعة التعريف وسرد الأسماء.

ولجلالته ذوق خاص في اختيار الأسماء لأبنائه، فيه تجديد أسماء آبائه وأجداده في الأسرة السعودية، أو التفاؤل للسلم والحرب، أو الانتماء إلى الله.

---

٣٦- حمود، ... ...

وللملك عبد العزيز بنات كثيرات.

كان من حظنا في اليخت أن نجاور بعض أصحاب السمو الأمراء الشبان، فتفضلوا بدعوتنا إلى الجلوس معهم، وشعروا أنني في حاجة إلى تعريف جديد، فكنت أعقب كل اسم سمعته بتفسير لمعناه يتضمن التحية والثناء.

قالوا: «عبد المحسن»، قلت: عبد الله جلَّ جلاله، والمحسن هو الله.

وقالوا: «متعب». فقلت: متعب لأعدائه.

وقالوا: «مساعد». فقلت: لأصدقائه.

وقالوا: «مُشعل» -فنطقتها بفتح العين- وقلت: منار ينير الأبصار. فاستدرك أخوه الذكي الأمير نوَّاف قائلًا: ما هو «مَشْعل»؛ بل هو مُشعل «بضم الميم» ليشعل نار الحرب على الأعداء. قلت: هو كذلك.

ثم عادوا إلى التعريف، فقالوا: «طلال». قلت: ظلال تظل الآمنين.

فقالوا: «نوَّاف» وهو أصغر الأمراء الحاضرين سنًّا، فقلت: ينيف على الأنداء والأقران.

وسموه سريع الخاطر، فطن عظيم الثقة بنفسه، فقال في شيءٍ من السرعة: والعقاد؟ إيش معنى العقاد؟

قلت: معناها القديم أنه يعقد الحرير.

فقال الأمير عبد المحسن -فيما أذكر-: ولكنه يعقد الفصولَ الآن.

ومما اعتبره تحية لمصر أن أصحاب السمو الأمراء على صغر سنهم -وبعضهم لم يبلغ الرابعة عشرة- يعلمون الشيء الكثير عن مصر وعلمائها وعظمائها، ويتتبعون أخبارها في الصحف والمذياع، ويصححون ما يخطئ فيه بعض الحاشية من الأخبار والأعلام.

ومما اغتبطت به كثيرًا أنَّ صاحب السمو الأمير متعب -وهو لم يبلغ السادسة عشرة بعد- تفضل فأهدى إليَّ نسخة قديمة من جريدة «الحرم» لصاحبها الشاعر الفاضل «الأستاذ فؤاد شاكر» صدرت قبل مولد سموه بسنة، وفيها قصيدة لي وصورة من صوري أيام الشباب كدتُ أنساها.

وسألني: هل تسرك هذه المفاجأة؟

قلت: كل السرور.

فكتب على الصفحة التي فيها القصيدة: «أقدم للأستاذ الكبير الكاتب الجبار عباس محمود العقاد قصيدته هذه للذكرى -ووقع عليها بهذا التوقيع-: متعب بن عبد العزيز».

وسأحتفظ بهذه التحية بين أنفس الذخائر والذكريات.

وقد تناول أخوه «الأمير مساعد» نسخة الصحيفة وقرأ منها القصيدة قراءة صحيحة واضحة معقبًا عليها بعد الانتهاء من قراءتها بهذه الكلمة الكريمة «معان قوية».

وقد جرى جلالة الملك عبد العزيز على عادة ملكية رشيدة في تدريب الأمراء على مهام الدولة وأعمال الحكومة؛ فمن بلغ منهم سن العمل والاشتغال بالمسائل العامة، وكل إليه عملًا يناسبه، ترقى به من مهمة إلى مهمة في مراتب الكفاءة والاختبار.

وعلى حبِّ جلالته لأبنائه ذلك الحب الجم الذي يبدو على أسارير وجهه، يأخذهم جلالته بالتربية العسكرية في المواقف الرسمية، ويطلب منهم أن يظلوا على استعداد لتلقي أوامره في كل لحظة وبغير تمهيد. فكان أصحاب السمو الأمراء جميعًا لا يعلمون من منهم يسافر مع جلالة والده، ومن منهم يبقى في نجد أو الحجاز. وجعل بعضهم يسألون كبار رجال الحاشية -لتشوقهم إلى زيارة مصر- قائلين: أنتم تعلمون، أنتم تعلمون؛ ولكنهم كانوا أيضًا لا يعلمون، وإنما علموا بأسماء الأمراء الذين يصحبون جلالة والدهم في اليوم الأخير.

وكان موقف التوديع على قصر الغيبة في الطريق وفي الديار المصرية موقفًا ينم على الحب المتبادل بين الإخوة والأبناء والأعمام؛ فكان المودعون يلثمون المسافرين وأعينهم مغرورقة بالدموع، ثم يقبل الأصغر يد الأكبر، سواء كان من المسافرين أو المودعين.

وتصرفهم -وإن صغرت سنهم- تصرف الراشدين الذين يعرفون كرامة الإمارة ويعطونها حقها من السمت والشارة.

لما كان «الأمير نواف» في الولايات المتحدة طلب أن يقابل الرئيس «ترومان» في القصر الأبيض، فتلقاه الرئيس في مقابلة خاصة بالترحيب والإكرام. قلت للأمير: وما رأيك في الرئيس ترومان؟!

فأجاب جوابًا يكبر سنه بكثيرٍ، وقال: أنا ما اجتمعت بالرئيس غير لحظات، فليس لي أن أقول فيه رأيًا من الآراء.

وأخبرني مَن كان مع سمو الأمير في زيارته للمدارس وللجامعات الأمريكية أنَّ الطلبة كانوا يسألونه ويكثرون من الأسئلة، فيجيبهم سموه فيما يرى الإجابة عليه. ولكنه في زيارة من هذه الزيارات قال لهم: ألا أسألكم مرة كما تسألونني؟ قالوا: تفضل. فسألهم: ما هي حدود المملكة السعودية؟ فوجموا وخلطوا في الجواب. فعاد الأمير يقول: سؤال منتظر لا تعرفون جوابه، وقد أجبت أسئلتكم فيما يخطر أو لا يخطر على البال!

وهم -أي سمو الأمراء- من أكبر قراء الصحف المصرية بين يومية وأسبوعية وشهرية، ومنهم من يشترك في نيف وثلاثين صحيفة، ويذكرون بمقالات فيها نشرت منذ شهور، ويحق للصحافة المصرية أن تعتد بهذه النخبة من القراء الأدباء والأمراء.

أقر الله بهم عين والدهم العظيم، وكتب الخيرَ على يديهم لرعيته المخلصين»[1].

وسمعت العقاد يروي يومًا لرواد ندوته في أسوان قصة العاهل الراحل حينما دخل المذياع المملكة؛ فقد اعترض بعض المحافظين المتشددين، وأنكروا على جلالته استماعه للراديو واستعانته باللاسلكي والتليفون؛ لأنهم يظنون أن بها شياطين تنقل الحديث. فسألهم جلالته يومذاك: هل الشيطان يطيق كلام الله؟! فأجابوا بالنفي. قال: اسمعوا ... فإذا الراديو يُذاع منه القرآن الكريم بصوتٍ عذب رخيم تعد حروفه، وأمر أحد أتباعه بأن يسمع المعترضين في التليفون بعض آي الذكر الحكيم؛ فدُهشوا وأيقنوا أنه لا شيطان ولا سحر، ولكن ذلك سر العلم ومحصول الدأب على

(١) روز اليوسف، الصادرة ١٣ صفر ١٣٦٥هـ، ١٧ يناير ١٩٤٦م.

الاستنباط ونتائج القرائح العبقرية. كما روى يومذاك أنَّ عظمة جلالته في حياته الخاصة تظهر من خلال علاقاته بإخوته وأخواته؛ فقد كان جلالته دائم الزيارة لأخته الكبرى، وكان يتلطف إليها ويشعرها بمكانتها عنده؛ لأنها أكبر منه، وأنه كان يقبل رجاءها؛ بل أمرها، ويتحدث إليها في التليفون، كما كان يزور بناته في بيوتهنَّ ويحمل لهنَّ الهدايا ليدخل على نفوسهن السرور.

كما روى لهم: أن ديمقراطية جلالته في معاملة رعيته مضرب للمثل. فقد سمع الناس يتحدثون عنه باسمه مجردًا من هالات الحكم المعهودة. فقد كان جلالته يخرج في موكب كانوا يطلقون عليه هناك «موكب الرحمة»، وبينما الموكب يشق طريقه صاح أحدُ البدو بعد أن أقترب منه قائلًا: «يا عبد العزيز، مظلوم». فأمر الملك سائقه بالوقوف -فهو يكره أن يكون بين رعيته مظلوم- فأدنى منه الرجل وسأله حاجته. فقال: أريد الهجرة .. أريد دواء .. أريد كساء.

فأمر جلالته للرجل بالدواء والكساء، وأعطاه عشرين جنيهًا لتساعده على الهجرة. ثم مضى موكب الرحمة في طريقه.

كما روى العقاد -في تلك الجلسة- كيف جاء أحد المقاولين من أبناء المملكة متظلمًا أمام جلالته من أحد الأمراء من أبنائه. وتتلخص الشكوى في أن للرجل أرضًا تجاور أرض الأمير، وفي غياب الرجل أقام الأمير على قطعة أرضه قصرًا، ويبدو أنَّ البناء جار على جزء من قطعة الرجل.

وسمع جلالته شكوى الرجل؛ فاستدعى الأمير وسأله في الواقعة؛ فذكر أنها حدثت دون قصدٍ منه، وإنما عمال البناء هم الذين جاروا على ذلك الجزء.

وهنا أطرق ابنُ سعود، ثم نطق بحكمه الذي كان مضرب الأمثال، فقال:

«يخير الشاكي بين هدم عمارة الأمير حتى يسترد أرضه من تحتها، أو ينال أربعة أمثال ثمن القطعة مع التعويض المناسب من مال ولدنا الذي اعتدى على أرضه».

ووافق الرجل على قبول الثمن والتعويض، ودعا للملك بثواب الآخرة.

إنَّ هذا الرجل الذي يحكم على ابنه بذلك الحكم لا تكفيه كلمة «عادل عظيم»؛ ولكن القارئ الذي يقرأ هذا البيان من بياناته لا يستغرب هذه الخليقة فيه؛ فقد أصدر يومًا هذا البيان:

«من عبد العزيز بن سعود إلى شعب الجزيرة العربية: على كل فردٍ من رعيتنا يحس أن ظلمًا وقع عليه أن يتقدم إلينا بالشكوى .. وعلى كل من يتقدم بالشكوى أن يبعث بها بطريق البرق، أو البريد المجاني.. على نفقتنا.

وعلى كل موظف بالبريد أو البرق يتقبل الشكاوى من رعيتنا؛ ولو كانت موجهة ضد أولادى وأحفادي.. وأهل بيتي.

وليعلم كل موظف يحاول أن يثني أحد أفراد الرعية عن تقديم شكواه مهما كانت قيمتهًا، أو حاول التأثير عليه ليخفف لهجتها، أننا سنوقع عليه العقاب الشديد.

لا أريد في حياتي أن أسمع عن مظلومٍ، ولا أريد أن يحملني الله وزر ظلم أحد، أو عدم نجدة مظلوم، أو استخلاص حق مهضوم .. ألا قد بلغت، اللّٰهم فاشهد».

وروى «أمين الريحاني» في كتابه «ملوك العرب» الحادثة الآتية عن جلالة الملك عبد العزيز عندما كان سلطانًا لنجد. قال:

«التفت إليَّ السلطانُ وقال: أمرنا مشكل يا أستاذ. علينا الكبيرة والصغيرة، فإذا كنا لا نداوم المراقبة لا نكون عالمين بكل ما يتعلق بشئوننا. العبد والأمير: عينينا على الإثنين حتى ننصف دائمًا الإثنين ونعدل بينهما. كان إذ ذاك يراقب قافلة أناخت عند خيمة المونة تحمل النبت والخضر والماء من الحسا، فأمر السلطان أن يحضر قيمها (أي قائدها) وسأله سؤالًا بخصوص جمل من الجمال.

فقال القيم: هو حرون يا طويل العمر.

فأجابه السلطان: اتركه يرعى مع الجيش (أي مجموع الإبل) ولا ترجعه معك. وعاد إلى حيث وقف الحديث، فاستأنفه قائلًا: العدلُ عندنا يبدأ بالإبل، ومن لا ينصف بعيره يا حضرة الأستاذ لا ينصف الناس».

وروى الشيخ عبد العزيز بن فوزان أحد رجال حاشيته: «أن لجلالته ذاكرة عجيبة ذات مقدرة كبرى في استيعاب الحوادث وتسجيلها، بحيث تظل منقوشة في طياتها، خالدة في تضاعيفها، فإذا ما عرضت مناسبة من المناسبات لحديث يتصل بالماضي ويحتاج إلى استشهاد أفاض جلالته في الحديث كأنما يقرأ من كتاب، أو كأنه يتدفق من نهر وحدث مرة أن كان بسياراته مارًّا فاستوقفه رجل كهل يطلب منه المعونة، فقال له جلالته: هل أنت فلان؟ قال: نعم! قال: هل تذكر يومًا أتيت فيه دارك؟! قال: نعم، ذلك قبل خمس وثلاثين سنة. عندما أتيتنا ممتطيًا صهوة جوادك عند الغروب، فالتفت إلينا وقال: صحيح ما قال؟! ونفحه جلالته بشيء من المال، وأمره أن يقابل رئيس ديوانه فيخبره بحاجته وهو من قرية تسمى «إبصر» من مقاطعة القصيم. أمَّا معرفة جلالته لهذا الرجل ودخوله لداره فهذه حدثت عندما كان جلالته يحارب خصمه ابن الرشيد، وكان يخوض المعارك بنفسه على جواده وصادف أنه استمرت المعركة بينهما ليل نهار أيامًا متوالية بجوار هذه القرية، وكان جلالته قام

بجولة خاصة ممتطيًا جواده دون أن يعرفه أحد ليستطلع مدى قوات خصمه، ومرَّ بهذه القرية ودخلها يستمع إلى رأي أهلها، وكان من بينهم هذا الشخص، فدعاه إلى بيته وهو لا يعرف أنه الملك -ولكنه يعتقد أنه من رجاله، تلك هي مناسبة دخوله منزل ذلك الرجل التي لم تغب عن ذاكرة جلالته»[١].

ذكرنا قبل صفحات أنَّ العاهل الراحل كان محبًّا للرياضة ومن المشجعين لها في الجزيرة، لذلك كان من ضمن برنامج زيارته للقاهرة أن يشاهد حلبة السباق بنادي مصر الجديدة، وأعد المسئولون يومذاك برنامجًا عظيمًا جضره جلالته، وصحبه يومذاك السادة الأمراء الأنجال الأعزاء النجباء .. ويومها كتب العقاد على صفحات صحيفة «الكتلة» مقالًا تحت عنوان «الملك الرياضي» ذكر فيها أنواع الرياضة لدى العاهل الضيف بمناسبة شهوده حفلة السباق جاء فيه:

«ربما كان منظر السباق الذي شهده أمس صاحب الجلالة الملك عبد العزيز من أحب المناظر إلى جلالته وأسرها لقلبه؛ لأنه كما لا يخفى من أشهر فرسان الجزيرة العربية وأكثرهم ملازمة لمتون الخيل من باكر صباه. ولكن الذي يقع عند كثير من القراء موقع الخبر الطريف أنَّ جلالته يحب الرياضة البدنية منها على الخصوص: رياضة الصيد والقنص، ويتكلم عنها في حماسة واشتياق كلما عرضت مناسبة من مناسباتها.

حدثنا جلالته على يخت «المحروسة» عن صيد الغزلان وصيد الحبارى[٢]، فقال: إن الغزلان عندنا لا يستحب صيدها في غير موسم القيظ؛ لأنها تحمل أجنتها في غير

---

(١) «رحلة الربيع» للأستاذ فؤاد شاكر، مطبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاه بمصر، طبعة ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م، ص٢٤٥.

(٢) طائر أكبر من الدجاج الأهلي، وأطول عنقًا، وهي أنواع كثيرة.

هذا الموسم، ولا خير في اصطيادها؛ ولكن الحبارى على خلاف ذلك تصاد في أواخر الشتاء، وهي في هذه الفترة من السنة تتجمع على الأرض بالمئات، ويتقابل ذكورها على إناثها، فتتزاحم في بقعةٍ واحدةٍ، وتصيب الطلقة الواحدة منها عشرات وهي على هذه الحالة.

قال جلالته: ولكن لا أستحب صيدها إلا وهي في الهواء؛ لأن لذة الصيد في إصابة الهدف على هذا المنوال.

ومن أحب الرياضات إلى جلالته رقصة الحرب التي يرقصها الإخوان النجديون وهم مقبلون على الميدان، وهي رقصة مهيبة متزنة تثير العزائم وتحيي في النفوس حرارة الإيمان، ويتفق أحيانًا أن يستمع جلالته إلى أناشيدها ويرى الفرسان وهم يرقصونها، فتهزه الأريحية ويستعيد ذكرى الوقائع والغزوات، فينهض من مجلسه ويزحزح عقاله وينتاول السيف وينزل إلى الحلبة مع الفرسان، فترتفع حماستهم حين ينظرون إلى جلالته في وسطهم طباقًا فوق طباق.

وبفضل هذه الرياضيات وأمثالها -مع انتظام المعيشة- يحتفظ جلالته بقوة البنية التي أنعم الله بها عليه، فهو لا يزال بها في حمية الشباب»[1].

عقب ذلك أقام النواب والشيوخ للعاهل الكريم حفلة شاي كبرى بالبهو الفرعوني الكبير بالبرلمان. وعقب ذلك التشريف السامي من العاهل الزائر، رأى العقاد أن يكون موضوع مقاله على صفحات «الكتلة» عن الشورى في المملكة العربية السعودية، فكتب يومذاك:

(١) صحيفة «الكتلة» الصادرة الإثنين ١٣ يناير ١٩٤٦م، مقال العقاد بعنوان «الملك الرياضي».

«كان أمس موعد الزيارة التي شرف بها صاحب الجلالة الملك عبد العزيز دار البرلمان المصري في حفلة شاي، التي أقامها حضرات الشيوخ والنواب لجلالته بالبهو الفرعوني.

وهذه الزيارة كريمة توحي إلى أذهان القراء السؤال عما يقابل النظام البرلماني في المملكة السعودية؛ لأن القراء جميعًا يعلمون أنَّ الشورى من فرائض الدين الإسلامي التي نصَّ عليها القرآن المجيد غير مرة، وأن آل السعود يعملون في حكومتهم بأحكام الكتاب وسُنَّة الرسول وما تواضع عليه السلف الصالح في أمور الدين والدنيا.

والواقع أنَّ الشورى في تدبير أمر الدولة نظام معمول به في الحكومة السعودية منذ قيامها، وأنها تقررت في الحجاز منذ نيف وعشرين سنة، فعقد جلالته في مكة المكرمة اجتماعًا عامًّا من العلماء والأعيان والتجار، وخطب فيه قائلًا:

«إنني أريد من الهيئة التي ستجتمع لانتخاب الأشخاص المطلوبين أن يتحروا المصلحة العامة ويقدموها على كل شيءٍ، فينتخبوا أهل الجدارة واللياقة الذين يغارون على المصالح العامة، ولا يقدمون عليها مصالحهم الخاصة، ويكونون من أهل الغيرة والحمية والتقوى».

ثم قال جلالته: «تجدون بعض الحكومات تجعل لها مجالس للاستشارة؛ ولكن كثيرًا من تلك المجالس تكون توهمًا أكثر من الحقيقة، وتشكل ليقال: إن هناك مجالس وهيئات؛ ثم يكون العمل بيد شخص واحد وينسب العمل للمجموع. أمَّا أنا فلا أريد من هذا المجلس الذي أدعوكم لانتخابه أشكالًا وهمية، وإنما أُريد مجلسًا حقيقيًّا يجتمع فيه رجال حقيقيون يعملون جهدهم في تحري المصلحة العامة ... أريد حقائق.

أريد رجالًا يعملون، فإذا اجتمع أولئك المنتخبون وأشكل على أمر من الأمور رجعت إليهم في حله، وعملت بمشورتهم، وتكون ذمتي بريئة من المسئولية».

ومنذ ذلك الحين يجتمع مجلس الشورى ويعرض عليه الشئون الخاصة بالبلدية والمحاكم الشرعية والأوقاف، وتعميم التعليم، وحفظ الأمن، وترقية التجار، وحل المشكلات الداخلية التي ترجع إلى العرف ولا تخالف أصلًا من أصول الشريعة.

وجلالة الملك عبد العزيز هو الذي يعين عدد الأعضاء الذين يتألف منهم مجلس الشورى. وهو الذي يدعوه أو يأمر بحله إذا شاء.

أمَّا الشروط المطلوبة في العضو؛ فهي أن يكون حسن السمعة، وأن يكون من ذوي المعرفة والخبرة، وألا تقل سنه عن خمسٍ وعشرين سنة.

وللمجلس أن يخالف الحكومة في قراراتها فتعاد إليه القرارت في هذه الحالة مشفوعة بالملاحظات التي تراها الحكومة كافية لإقناعه.

فإذا أصر المجلس على رأيه وأصرت الحكومة على رأيها؛ فالمرجع إذن إلى جلالة الملك يَفْصِل بما يراه. ومن حق المجلس أن يكلف رئيسه بمراجعة جلالة الملك في شأن القرارات التي ترفع إلى جلالته ويمضي عليها شهران دون أن تبت فيها الإرادة الملكية بالتصديق.

ويحيط بجلالة الملك عبد العزيز نخبة من المستشارين الذين يختارهم جلالته من الشيوخ المحنكين والشبان المطلعين، وبعضهم من نجد والحجاز وسائر أنحاء الجزيرة العربية، وبعضهم الآخر من سورية أو فلسطين أو طرابلس أو مصر أو البلاد

الإسلامية، فهم بمثابة جامعة عربية صغيرة يمثلون عند جلالته بمختلف المقاصد والآراء.

وجلالته عظيم العناية باستطلاع رأي شعبه والرجوع إليه في المشكلات التي تتفرق فيها المنازع ويتشعب فيها مجال القيل والقال.

وهذه سنة قديمة في الحكومة السعودية جرى عليها جلالته في معاملة الإخوان النجديين، وفي معاملة غيرهم من الشعوب.

فلما اضطرب الأمر بين نجد والعراق، واندفع بعض المتشددين في طلب الجهاد على غير علم بأصوله الدينية وعواقبه السياسية، أرسل جلالته في طلب الرؤساء والعلماء وذوي الرأي وأصحاب النزعات المتباينة ليوافوه عند قصره بالرياض ويفضوا إليه بشكاياتهم ومطالبهم ويصارحوه القول فيما يأخذونه على حكومته، وما يشيرون به عليه، وبلغ من صراحته أنه وقف أمامهم وهو يقول لهم: «فكروا أيها الإخوان في الرجل الذي تجدونه أهلًا لقيادتكم، فإن لم تجدوني أهلًا لحكمكم فاختاروا لكم رجلًا آخر؛ على أن يكون من أفراد أسرتي التي قامت بالأمر فيكم، ولكم عليَّ أن أبايعه قبلكم وأعاونه بكل ما أستطيع».

فارتفعت الأصوات من كل جانب كأنما تصدر عن وحي واحد: كلا. كلا. أمَا هذا فلا؛ وإنما نريدك أنت يا عبد العزيز ولا نريد غيرك.

فقال جلالته عندئذ: أمَّا إن كان هذا رأيكم فتحدثوا إليَّ إذن فيما تتحدثون به بينكم، وابسطوا إليَّ بشكواكم، وأنا كفيل لكم بأن أعمل بها أو أقنعكم وأرضيكم.

وعلى هذا النحو يسير جلالته في استطلاع الآراء وتوثيق عرى التفاهم بينه وبين رعاياه، وكثيرًا ما يشرك في الأمر طوائف الحجاج المقبلين من مشارق الأرض ومغاربها كلما طرأ بينه وبين بعض الحكومات الإسلامية بحث أو خلاف، فيخطبهم ويفضي إليهم بدعواه ودعوى مخالفيه؛ لأنه ينظر إلى هؤلاء الحجاج من جميع أقطار الأرض وكأنهم «مؤتمر إسلامي» يحق له أن يطلع على حقائق الأحوال بين حكومات المسلمين ويطلعوا عليها إخوانهم حين يرجعون إليهم.

وجلالته يضطلع بالتبعات العظمى وحده بعد المشاورة والمداولة والاستطلاع.

ولكنه يتكلم عن المسائل الكبرى بسليقة ديمقراطية يستمدها من أصول الدين، ومن البصيرة النيرة التي تهديه في معضلات الأمور.

فلما تحدث إلينا جلالته عن الجامعة العربية قال: إنَّ مصير هذه الجامعة موكول إلى إرادة العرب أجمعين، وإنها تستقر وتدوم على قدر استقرار الإيمان بها في خواطر الأمم التي تتألف منها؛ فإذا علمت هذه الأمم أنها نافعة لها صالحة لهدايتها، فهي مستمرة، وهي بفضل هذا الإيمان تقاوم ما يعترضها من التنافس هنا والتنازع هناك. وضمان الشعوب للجامعة العربية خير لها من ضماننا نحن الحكام والرؤساء.

وهي سليقة ديمقراطية دستورية توائم ما فطر عليه جلالته من حب التشاور وصدق الرغبة في التفاهم، وما أصغينا إلى جلالته مرة إلا أحسسنا باهتمامه الدائم بالإيضاح والإقناع»[1].

وواصل العقاد الكتابة عن العاهل الكبير وعن نظام حكمه الديمقراطي المنبثق من الدين الحنيف وتعاليمه الكريمة، فكتب في اليوم التالي وعلى صفحات «الكتلة»

(١) صحيفة «الكتلة» الصادرة يوم ١٩٤٦/١/١٦م، مقال العقاد «الشورى في المملكة السعودية».

أيضًا مقالًا قيمًا عن طريقة العاهل الراحل في إقناع رعاياه تحت عنوان: «الملك عبد العزيز يقنع رعاياه» بدأه بقوله:

«أشرنا أمس إلى نظام الشورى الذي يعمل به في المملكة السعودية وقلنا: إن جلالته يصدر في ذلك عن سليقة ديمقراطية دستورية توائم من حب التفاهم، وختمنا المقال قائلين: «وما أصغينا إلى جلالته مرة إلا أحسسنا باهتمامه الدائم بالإيضاح والإقناع».

والواقع أنَّ جلالته يحتاج إلى استخدام وسائل الإقناع كثيرًا في مخاطبة شعبه على تفاوت طبقاته؛ لأنه يريد الانتفاع بالعلوم الحديثة فيما يوافق البيئة الشرقية، ويريد في الوقت نفسه أن يرضي رعاياه عن خطط الإصلاح التي ينتهجها في بلاده ليتقبلها أهل البلاد متفهمين مؤيدين، ولا يذعنون لها مرغمين أو كارهين، وقد آتاه الله ملكة نادرة تعينه على إقناع المعارضين على اختلاف حظوظهم من المعرفة والذكاء، فإن أجدى الدليل والبرهان في أفهامهم وتجلية الحقائق لأذهانهم فذاك ما يبغيه جلالته ويسعى إليه، وإن أصر المعارضون على العناد فهناك يجدي الحزم جدواه، ويفعل البأس ما لا يفعله البرهان.

وقد عرف الكثيرون أنَّ بعض المتشددين أنكروا التليفون والبرق واللاسلكي، كما أنكروا السيارات وما شاكلها من وسائل المواصلات، فقال جلالته لهؤلاء المتشددين: «أيها الإخوان، إنَّ أهل العلم في مكان الرعاية منا، وهم على رءوسنا؛ ولكن حذار أن يهزونا بالغضب فيسقطوا من مكانهم هذا إلى الأرض، ومن سقط إلى الأرض فلن يعود إلى مكانه فوق الرءوس».

والتفت جلالته إلى مقاعد العلماء في مؤتمر الرياض -الذي أشرنا إليه في مقال أمس- قائلًا: «وهل تجدون في كلام النبي عليه السلام ما يمنعنا أن ننتفع بالمخترعات الحديثة في تيسير المواصلات والسير على سنن التقدم والحضارة؟».

فأجاب جُلُّهم من أهل الرأي: كلا، ولا حَرجَ في ذلك.

على أنَّ جلالته قد أقنع المعارضين بما يبطل مخاوفهم ويزيل الشكوك من أذهانهم، وعلم أن بعضهم كانوا يذهبون إلى محطة اللاسلكي ليسألوا الموظفين هناك عن المكان الذي يمسكون فيه الشياطين ويقدمون إليها القرابين لتحمل لهم الأخبار إلى الأماكن القصية، فقطع جلالته الشك ببرهانه المشهور وأسمعهم القرآن الكريم من المذياع والتليفون ليوقنوا أن الذي ينقل القرآن الكريم لا يكون من عمل الشيطان».

قد سمعنا وقرأنا قبل سفرنا إلى الحجاز كثيرًا من الأمثلة الألمعية لبعض الأقضية السعودية التي يتوخى جلالته فيها العدل والإقناع مع العلماء والجهلاء على حد سواء، وانتوينا أن نسأل عن تفصيل هذه الأقضية كلما سنحت لنا فرصة السؤال؛ تمحيصًا للرواية فيما تختلف فيه الروايات.

من ذلك أنَّ امرأة ساذجة أخذت بتلابيب رجل من البادية إلى مجلس صاحب الجلالة الملك وهو يستمع للشكايات، وطلبت أن يحكم لها بقتل الرجل؛ لأنه قتل زوجها ويتم أطفالها، فسألها جلالته عن القصة؛ فقال: إنَّ زوجي كان ينام تحت نخلة في العراء، وكان هذا الرجل يجني الثمر منها فسقط عليه وهو نائم فقتله.

قال الملك: ولكنه لم يقصد قتله.

قالت الزوجة: لا أبالي قصد أم لم يقصد، فإن الذي أعلمه ويعلمه الناس أنني كنت زوجة يعولني عائل، فأصبحت أيمًا لا عائل لي بفعل هذا الرجل القاتل، فلا مناص من القصاص.

وهنا فتقت الحيلة لجلالته فتوى تقنع المرأة وتحفظ حدود العدل فلا تجور بالقصاص على غريمها المسكين، فقال لها جلالته: حسن ما تطلبين .. وإنما يعامل القاتل بمثل عمله، فاصعدي أنت صاحبة الحق في الدم على تلك النخلة التي سقط منا واسقطي عليه كما سقط على زوجك واقتليه.

سألنا جلالته عن هذه القضية فقال مبتسمًا: والله ما أذكر .. إن الأقضية كثيرة ولعلها مضت بي في بعض ما مضى.

وإنما سنحت الفرصة لسؤال جلالته في هذه القضية بعينها؛ لأن جلالته كان يتحدث عن الأم والمرأة التي نازعتها في ابنها وقبلت المرأة التي تنازعها، فيقضي الحكم بينهما بشق الوليد نصفين، فسلمت الأم في ابنها، وقبلت المرأة التي تنازعها هذا القضاء.

قال بعض الجالسين: هذا قضاء سليمان عليه السلام كما ذكرت كتب السنة، فكثيرًا ما كان يهتدي إلى حكم مغاير لحكم أبوه داود، ويرضى أبوه والناس بذلك الحكم، وقد أشار الله تعالى إلى بعض أقضيته تلك في قوله تعالى: {وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما}.

ومن الأقضية التي اشتهرت عن جلالته في الحجاز أن رجلًا من المغرب طرأ على مكة المكرمة، فادعى أنه من سلالة بيت الشيبي الذين يتقلدون مفاتيح الكعبة المعظمة

ويتوارثونها جيلًا بعد جيل، ثم لجَّ الرجل الأفاك في دعواه وأثار الثائرة في كل مكان على أبناء ذلك البيت؛ يلاحقهم في الكعبة وفي منازلهم وفي المجالس والأسواق؛ ليكرههم على موافقته أو إرضائه، واشتغل الناس بهذه القصة بين منكرين للدعوى ينكرونها لأنهم يعرفون النسب الصحيح، ولا يرون دليلًا قاطعًا على صدقها، وبين مشجعين للرجل من قبيل النكاية والشحناء.

فلما رفع الأمر إلى الملك عبد العزيز دعا بذلك الرجل الأفاق في مجلس حافل وسأله: أطالب دين أنت، أم طالب دنيا بما تدعيه؟

قال الرجل: بل طالب دين!

قال الملك: إن كنت إنما تطلب الدين ولا تطلب غيره، فاذهب فأنت من بيت الشيبي وهذه الكعبة أمامك تتعبد فيها كما تشاء، وإن كنت إنما تطلب الدنيا فوالله ما أخطأ القوم إذ ينازعونك وينكرونك وأنت تنازعهم بغير برهان، ولا سبيل إلى القضاء لك عليهم بغير البرهان الصحيح.

وكثيرًا ما ترفع المشكلات إلى جلالته فيقضي فيها بما يقنع الخصمين على هذا المثال، وكثيرًا ما يقضي في المعضلات السياسية بما يشبه هذا القضاء فينفض الإشكال. وقد يحتكم إلى جلالته رجلان من رجاله المقربين في معرض السمر والتبسط على الحديث، فلا يحيد عن هذه السنة في قضائه العادل على البديهة: إننا راضيان بحكمك يا طويل العمر ...

قال لجلالته رجلان من أقدر رجاله في محادثة من هذا القبيل جرت أمامنا، فقال جلالته مشيرًا إلى كل منهما: هذا أقوى وهذا أظلم!

قلنا لأحد الرجلين الكبيرين متجاهلين: من أراد جلالته بالأقوى ومن أراد بالأظلم فيما بينكما؟ قال: والله لقد صدق جلالته فيما حكم به، وإن صاحبي لأشطر مني، ثم ضحك وهو يقول: ولكنني أنا أقوى.

وعلى هذه السنة الماضية يعمد جلالته إلى الحزم فيما يدعو إلى الحزم، ويتوخى الإقناع فيما يجدي فيه الإقناع[1].

وقد التقى العقاد عقب وصوله الأراضي الحجازية بأحد أدبائها وشعرائها، وهو الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار الذي نشر ما دار بينه وبين العقاد سنة (١٣٦٥هـ)، ورأينا أن ننقل ما قاله العقاد يومذاك للعطار بالقدر الذي يلزم في هذا الكتاب.

فقد قال العطار: أمَّا نحن أدباء مكة فما كدنا نعلم بوصوله -أي العقاد- مكة حتى تسابقنا إلى زيارته، وكان أبين أعضاء البعثة بقوامه الفارع الطويل وبنائه الشاهق وتركيبه الوثيق!

وفي اليوم الثاني عقب وصوله هرع إليه نفر من الأدباء لتحيته وللتزود من أدبه ومعارفه وثقافته الواسعة، أمَّا أنا فمن أشد الناس دراسة لأدب العقاد وإعجابًا به وتقديرًا له؛ بل هو عندي الكاتب الأول للعربية في عصرنا الحاضر، وبيني وبينه صلات ودية ترجع إلى تسع سنوات خلت، ولهذا كنت أعظم شوقًا من غيري إلى لقائه وتحيته في بلادي، وذهبت إليه. وانتظرته حيث ينزل لمدة دقائق، فأبصرته قادمًا، فنهضت إليه أستقبله، وتصافحنا مصافحة حارَّة، فبادر الأستاذ فؤاد شاكر يعرِّفه بي، فأجاب الكاتب الكبير: إنني أعرفه من مصر منذ سنين.

---

(١) صحيفة «الكتلة» الصادرة صباح الخميس ١٩٤٦/١/١٧م، مقال العقاد بعنوان «الملك عبد العزيز يقنع رعاياه».

وجلسنا على كرسي طويل نتحدث؛ وهذا بعض الحديث:

قلت: إنَّ شباب البلاد العربية السعودية وأدباءها يودون لو طال مقامك بينهم أيامًا؛ ليقيموا لك حفلات التكريم، فهم أرباب قلم وأصحاب فكر وذوو بيان، وأنهم معجبون بك، وكانوا يتمنون من صميم قلوبهم أن يتحدثوا إليك، وأنهم اليوم يجدونك في بلادهم فيأسفون على أنك لن تقيم بينهم إلا سويعات معدودات لا تتيح لهم أن يؤدوا بعض ما لك عليهم.

فقال الكاتب الكبير:

«إنني شعرت منذ هبطت بلدكم المقدس بالحفاوة والتكريم، وإنني أشكر لكم حفاوتكم بي وهي حسبي، وهي عندي أعظم من حفلات التكريم، ولقد وجدت هنا شبابًا ناهضًا يصبو إلى الأدب والفن والعلم، شبابًا ناهضًا دائب الدرس والتحصيل، متابعًا الحركة الأدبية باهتمام لا مزيد عليه، وهذا شيء يجعلني مطمئنًا إلى أن لهذه البلاد مستقبلًا أدبيًّا، وإنني لواثق أن وثبتكم الجديدة ستعيد إلى بلادكم سمعتها الأدبية الأولى».

قلت: أتذكر -يا أستاذ- أنك قلت لي سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٦م) عندما طلبت إليك زيارة بلادنا: إن لم أطف بالبيت سبعًا فقد طافت به روحي سبعين مرة. ووددت أن تلقى شباب المملكة العربية السعودية في حرمهم، وها أنت ذا قدمت إلى بلدنا الحبيب إلى كل مسلم، فالحمد لله الذي بلغنا منانا وبلغك مناك، غير أننا لا نقنع منك بالزيارة الخاطفة والمقام القصير: ولا يقنع بلدنا منك إلا أن تبقى به شهرًا على الأقل؛ لنقوم بواجبنا نحوك، ولتقوم أنت بواجبك نحو البلد الذي أنبت أبطال عبقرياتك الخوالد.

فقال الكاتب الكبير: «نعم، أذكر ذلك، وإنني الآن لسعيد بأن ألقى شباب مكة في حرمهم، وأرجو أن يبلغني الله ما أريد، فأقيم بينكم الأيام التي ترغبون».

ثم أخذ الأستاذ العقاد يذكر هذه البلاد بالخير والثناء، ويتمنى أن يكون حاضرها ومستقبلها كماضيها المجيد، وانتقل إلى الكلام في الآداب والفنون وأثرها في الحياة. فقلت له: إنَّ مصر لم تضمن لنفسها هذه المكانة في العالم العربي، ولم يكن لها فيه هذا الاحترام المشهود إلا بالدعاية الصادقة، وكان أدباؤها هم الدعاة الصادقين، وكانوا طلائعها إلى الأمة العربية حتى كانت لها هذه الزعامة وهذا التقدير والإعجاب.

العالم العربي معني بتتبع حركات مصر الأدبية والثقافية والعلمية كثيرًا، ولم يضمن له هذه المكانة إلا العقاد والمازني وطه وهيكل وأحمد أمين وغيرهم من أرباب الأقلام والفنون، فسفارة مصر الأدبية إلى كل قطر عربي سفارة لها شأنها، وهي أفيد السفارات كلها وأقواها أثرًا.

فقال الكاتب الكبير:

«مكانة الأديب الحق تزداد رفعة، كما يزداد قراء وأنصارًا وأتباعًا كل يوم، وأدبه خير سفارة، وهو وحده الدعاية الصادقة البريئة من كل زيف وهوى».

قلت: إنَّ لك لرأيًا في العالم العربي. وأرجو أن ينال أدبنا من تشجيعك ما يلفت إليه نظر أدباء الشرق العربي، فهل تعدني بالكتابة عنه؟

فقال الكاتب الكبير:

«أمَّا التشجيع الحق فلن أضن به، وهو غير الإعلان الأمريكي، وأنت تعلم أني لست من كتاب الإعلانات، ولهذا لا أستطيع أن أكتب عن الأدب الحجازي شيئًا إلا

إذا قرأت -على الأقل- أربعين قصيدة وشيئًا كثيرًا من نثر أدباء الحجاز؛ ليسعني سوق الدليل حتى يعلم القراء أنني لم أكتب إلا ما كان حقًّا كعادتي، ويعلموا أني لم أخادعهم، وقد طلب إليَّ من قابلني من أدباء مكة هذا الطلب، وأنت نفسك تفهمني أكثر من غيرك، فإن كنتم مصرين على رغبتكم فابعثوا إليَّ بآثاركم لأدرسها أولًا، ثم أبدي رأيي فيها بصراحة ثانيًا.

ثم قال الكاتب الكبير:

«إنَّ جلالة الملك ابن سعود رجل عظيم، رجل عبقري، هذا ما أوحته إليَّ مطالعاتي الكثيرة، وأن ما رأيناه من جلالته البارحة أوحى إليَّ بأنه ملك عظيم، سمح النفس، كريم.

وهنا أقبلت السيارة التي ستقله إلى جدة استعدادًا للرحيل بمعية الملك العربي العظيم إلى مصر، فقمنا معه وودعناه»[1].

(١) المقالات للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، طبعة ١٩٤٧م، ص١٩٩ وما بعدها.

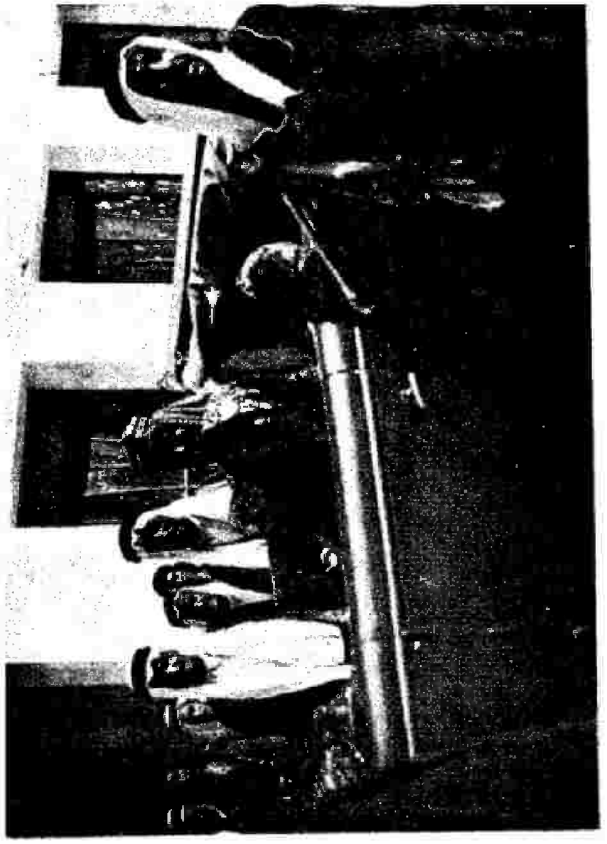

في رحاب البيت العتيق

على مائدة الضيافة بجلة مع العاهل الراحل جلالة الملك عبد العزيز بن سعود

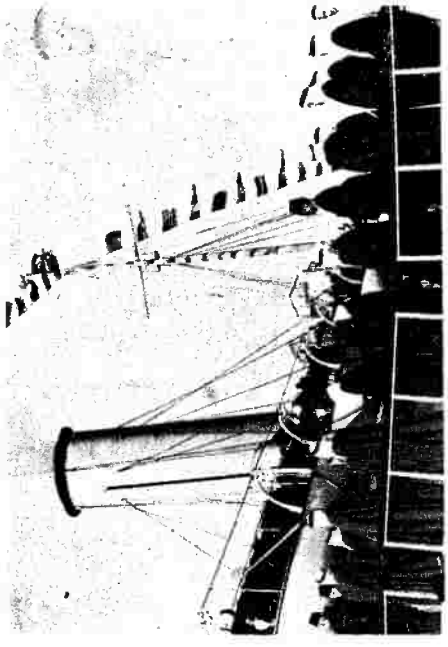

السادة اصحاب السمو الامراء يصعدون لليخت الذي سيقل الراحل لمصر ، ويرى الاستاذ المقاد بينهم

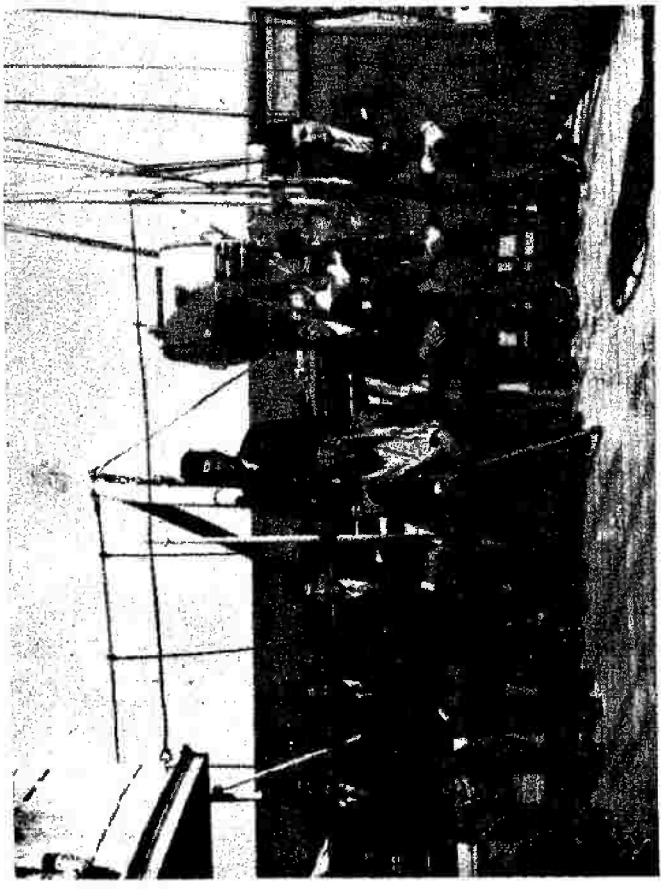

العاهل الكبير مع بعثة الشرف العربية على ظهر اليخت خلال الرحلة

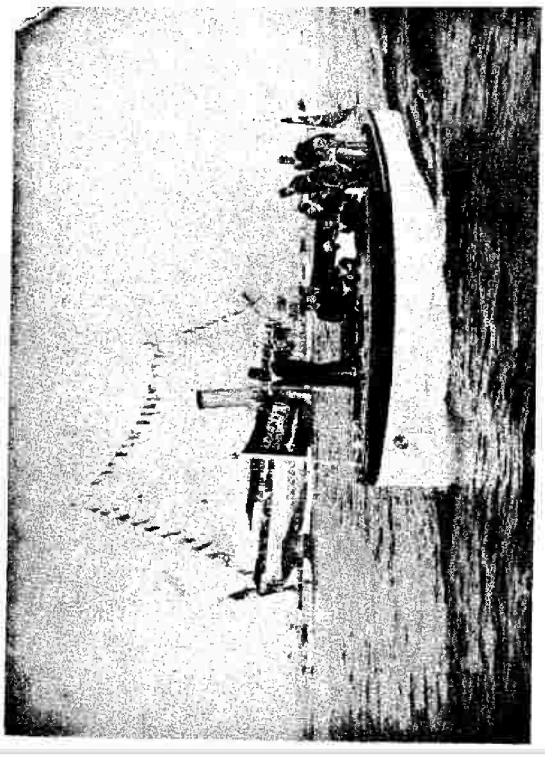

عند مدخل ميناء السويس ويرى علم الملكة ترفعه البحرية المصرية على مقدمة لنشاتها

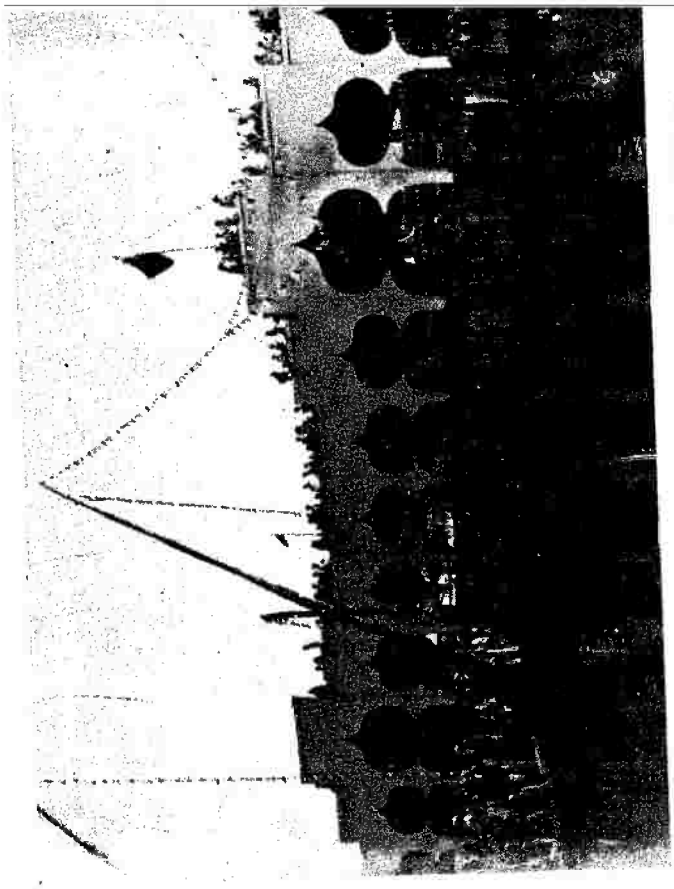

آلاف المواطنين على رصيف ميناء السويس في انتظار الوالد الكريم والعامل العظيم

الضيف العظيم ينزل من اليخت الى ارض مصر بميناء السويس

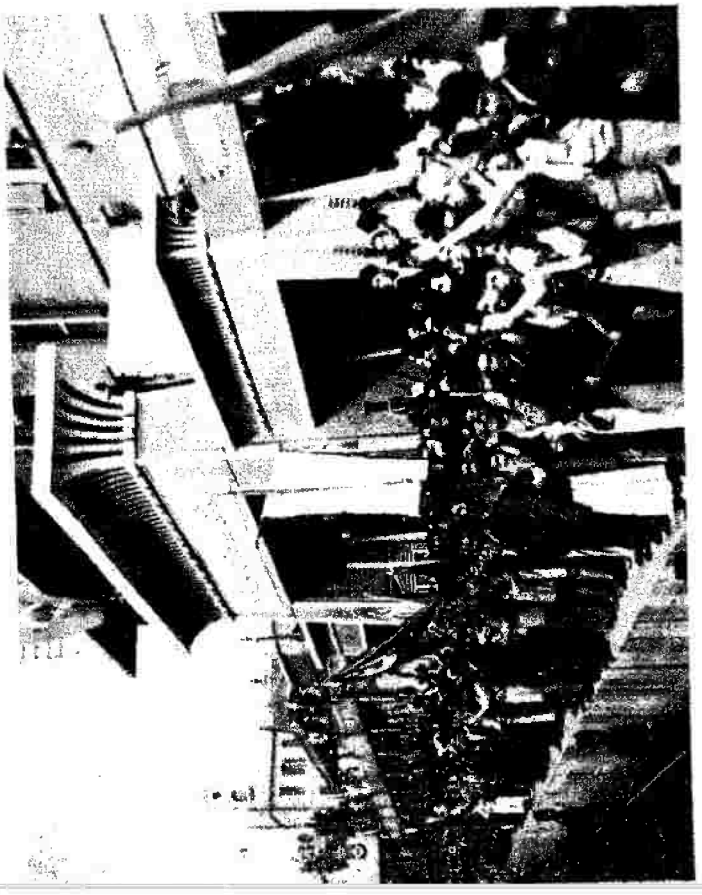

على رصيف محطة القاهرة في انتظار وصول قطار العامل الكبير قادما من السويس

ميدان محطة القاهرة والركب يشق طريقه لقصر عابدين

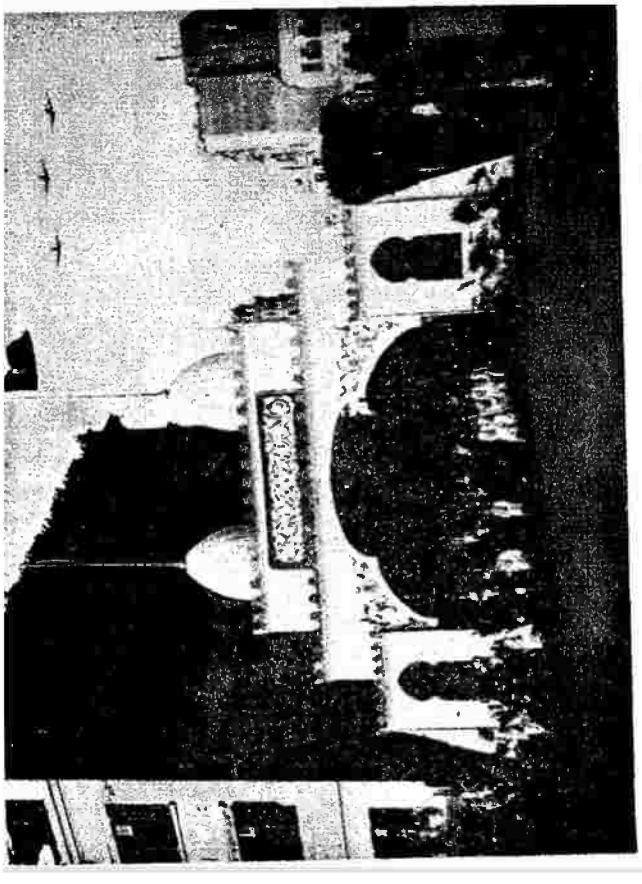

عند مدخل قصر عابدين وترى ثلاث طائرات تحلق في سماء المنطقة تحمي العاهل الزائر

جلالة الملك عبد العزيز ينظر الى الشعب المصري الذي تعلوه الفرحة بمناسبة الزيارة الكريمة

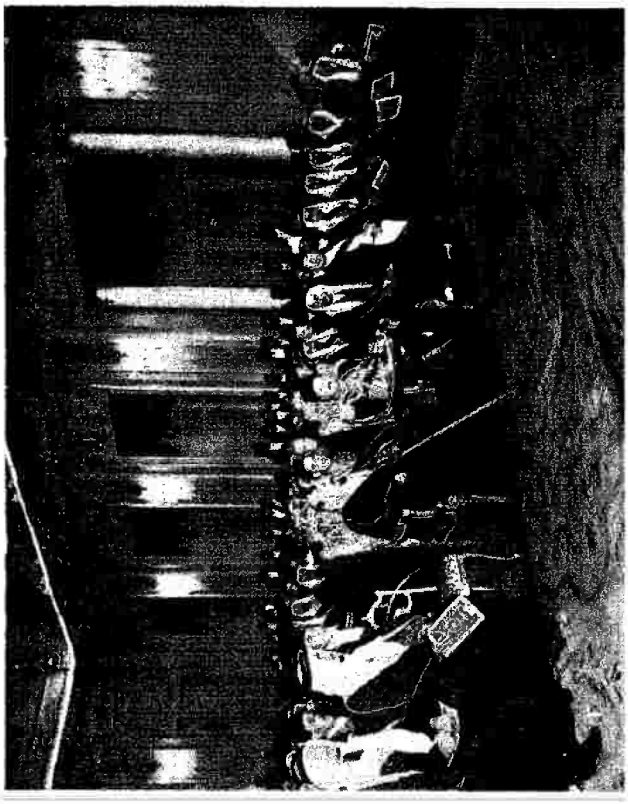

الأستاذ العقاد يلقي كلمة في حفل العشاء بوزارة الخارجية المصرية يرحب بالعاهل الكبير

العاهل الكبير يوقع بامضائه الكريم

أحد رجال الحكومة المصرية يطبع قبلة على راحة العامل الكبير خلال الزيارة الكريمة

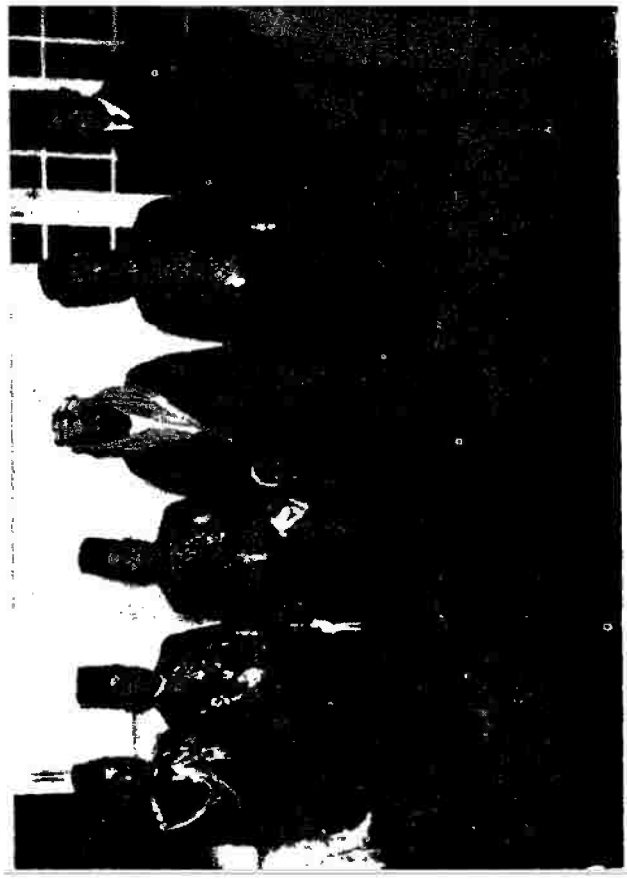

جلالة العاهل الكبير مع بعض رجالات مصر الكبار ويرى الأستاذ العقاد على يسار العاهل الكبير

اصحاب السمو الأمراء النجباء بتوسطهم دولة محمود فهمي النقراشي خلال الزيارة الكريمة في صحبة
الضيف الكبير العاهل المعظم جلالة الملك عبد العزيز بن سعود

# فهرس

الإهداء ..... ٦
ما قبل المقدمة ..... ٧
مقدمة ..... ٩
أمة مؤرخة ..... ٩
مقتطفات مختارة من أحاديث وأقوال
الراحل الكبير جلالة الملك عبد العزيز آل سعود..... ١٣
ملامح حياة ..... ١٦
ظروفُ الرحلة..... ٢٩
فهرس..... ٩٥